خيوط النور

محمد عبد الحليم عبد الله

خيوط النور

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الوديعة

بدأت تشعر بالقلق عليه فى هذه الليلة ..

لم يحدث من قبل أن خفق قلبها بالخوف .. هكذا .. من أجله .. ومع أن الشهر كان ديسمبر والليل بارد ، فإنها لم تستطع إلا أن تطل من الشباك . تلفعت بشال ووقفت تنظر . ونخلة وحيدة تترنح أمامها على بعد فى هدوء الليل . وابنها لم يعد .

شعرت ببوادر سعال فتراجعت من النافذة وأقفلتها وأضاءت النور وجلست .

لاحت لها على الحائط صورة تحمل ملامح ابنها . إنها طبعا صورة زوجها .. الذى عاش عمره بسرعة ومات صغير السن .. عاشه بطريقة سلوكه .. بطريقة الأكل والمشى والسباحة والعمل وحتى الحديث . كان يفعل كل هذا بسرعة تدعو إلى العجب .. وحتى العمر عاشه بسرعة ومات فى السادسة والعشرين .

ولم تكن تطيق أن تسترجع هذه الذكريات فقد ركزت بصرها على الشجرة الخضراء الوحيدة .. عندها .. فى حديقة الدنيا .. على ابنها الذى يمارس العيش ممارسة تختلف عن سلوك أبيه تماما . فهو يأكل ببطء ويمشى ببطء وبنفس الطريقة يتكلم ويعمل ويتحدث .

وابتسمت لنفسها وهى وحدها فى الحجرة عندما أوحى إليها

قلبها بما يرضيها .. بأن ابنها سيعيش طويلا مادام هذا شأنه .. فلا داعى للخوف عليه .

ولم تكد تنهض من موضعها حتى دق جرس الباب فلم تترك الفرصة للخادم الصغيرة . بل سارعت إليه . كان هو القادم .. وأحست فى هذه الوهلة بعتاب يكاد يتحول إلى إعراض ، ولكنها نسيت كل شيء عندما تبسم وخطا بعوده الممشوق نحو الداخل وأخذ يتكلم بهدوء يكاد يكون نوما .

كانت تستمع إليه وهى صامتة . وتعلم تماما أنه قد جاوز العشرين وشغل وظيفة فى الحكومة ، وبدأ مسلكه الشخصى يدخل فى « منطقة الظل » .. فمنذ عام .. وعلى التحديد قبل الصيف الماضى كان عند خروجه يقول لها بصوته الهادىء المتساوى النبرات الخالى من الإيحاء والتأثير : « ماما .. أنا راجع إلى مكتبى هذا المساء لبعض الأعمال » .. وينظر فى ساعته تلقائيا .. « غالبا سوف أمكث حتى الثامنة مساء . فإذا لم أعد حتى الثامنة والنصف أكون قد مررت على صديقى عبده .. وإذا حدث أن طال تأخرى فلا تقلقى لأن ذلك معناه ذهابنا إلى سينما .. ماما .. باى باى .. قبلينى » .

***

وعلى الغداء أو العشاء تدور أحاديث عن الماضى أكثرمن الأحاديث عن المستقبل ، لأن الماضى فى حياة بعض الناس .. لقصره وقربه .. يكاد يكون حاضرا .

فهى أم .. أرملة فى السابعة والثلاثين . وهو ابن شاب فى الحادية والعشرين . ظهر أبوه فى حياتها كأنما ليسلمها رسالة .. ثم انصرف !

لكنها خاضت ببسالة تجربة تساؤل الناس :

« كيف ستتصرف بشبابها ؟! » ثم تجربة الوساوس ثم تجربة الدفاع نحو الزواج الذى رفضته .

كانت تحس أنها قادرة على تحمل مئونة العيش . لم تكن فى عسر ولايسر . ولم يكن هذا فى نظرها مهما ، فقد كانت حقيقة إحساسها قد تحولت إلى مجرى جديد .. شعرت أنها جناح واحد لكتكوت صغير هو ابنها ، فلم ترسم المستقبل ، بل عبرت على الطريق كما يعبر الأعمى الذى تخدمه المصادفات .

كان مناها أن ترى ابنها فى العاشرة من العمر . مدعية فى نفسها أنه عندما يبلغ هذه السن يمكنه الاعتماد على نفسه ، ويمكنها هى أن تفكر فيما يفكر فيه الناس بفضولهم ، فلما بلغ ابنها العاشرة رأت فيه أنيسا ، حتى إذا مابلغ السادسة عشرة رأت فيه شابا تسامره، وها هوذا اليوم قد جاوز العشرين . وهى تخطو إلى السابعة والثلاثين . تذهب معه إلى السينما فى بعض الليالى متأبطة ذراعه فيبدو عودها الدقيق إلى جوار قوامه كظاهرة تدخل على نفسها سعادة كانت قادرة على تنميتها حتى تصير نشوة .

***

لكنها الليلة تحس شيئا غريبا دخل حياتهما ..

وجاءها هاتف « أن كل حياة مشتركة قابلة لأن يدخلها شيء مادامت مكونة من قسمين » .

وحملقت في ظهره العريض وهو يخلع السترة . كان ظهره إليها.. وبعد ما لبس البيجاما سأل بتعب :

« هل عندك عشاء يا ماما ؟ » .

وانحدر السؤال إلى قلبها كأنه وسواس ، وقالت في نفسها لماذا لم يقل « عشيني يا ماما » كما يقول كل ليلة ؟

وسبقته إلى المائدة في خفة النحلة وجلسا يأكلان . وكان في ذهنها مقدما فكرة أدمنت استعادتها في وحدتها حتى حولتها من فكر إلى عقيدة وهي أن الحياة العائلية ليست رقا ولاشراء رقبة . وأن البيوت أشبه ببنوك الودائع ، البنت لرجل في الخارج والولد لامرأة في الخارج .. وليست هذه الودائع ملكا لمدير البنك !! .

لكنها على كل حال أحست جفافا في حلقها فأخذت تصب من الدورق ماء بيد مهزوزة . وكان الابن يلتهم البيض في صمت أرادت هي أن تبدده فسألته عن صديقه عبده وعما إذا كان قد ذهب معه إلى سهرة ..

وأحست منه إعراضا عن الكلام وأحست « بالغريب » الذي يدخل الحياة المشتركة حتى كادت تمسكه بيدها .

وجدت نفسها فجأة تناديه . كان نداؤها أعلى من المألوف لأنها شعرت أنه على بعد . عندئذ رفع بصره إليها . فقالت له :

ـ سمير . يجب أن تفكر فى الزواج !!

كان فى لهجتها إصرار وتدبر .. موقف كل عاقل يصدر الحكم على نفسه .

وتوقف عن المضغ وسأل كأنما لم يصدق أذنه :

ـ ماذا قلت ياماما ؟!

فأعادت الكلام بنفس اللهجة .. وكان هناك شىء متوقع عادة وكانت نفس الأم الشابة على استعداد له . هو أن يقول سمير نفاقا: « لا .. بدرى يا ماما » .

ونطق سمير ، سمعته أمه يقول بلهجته المتشابهة :

ـ لك حق . لقد فكرت فعلا !!

وأخذت الأم تسأل بسرعة :

ـ ووجدت ؟

فأجاب بهدوء :

ـ ووجدت .

ـ مبروك !

ـ إنها ستعجبك . لكنى .. آه .. على كل حال بانتظار رأيك ..

وباتت الأم تفكر « أى الرأيين ياترى هو محتاج إليه .. رأى العقل أو رأى القلب ؟ »

لكنه لم يلبث أن قال لها فى الصباح بهدوء لا يختلف فى أثره عن سرعة أبيه : « ماما .. سأريك خطيبتى الليلة .. هنا .. وسأشترى عند

عودتى ظهرا كثيرا من الجاتوه .. »

قالت الأم وكأنها ترى مروحة بمحرك ضخم تدور أمام عينيها .

قالت فى شبه همس كمن يسأل أحدا لا يراه :

ـ هنا ؟ .. الليلة ؟

ـ نعم ..

قالها وهو يهم بالخروج من باب الغرفة ، فرأت عرض كتفيه ورقبته . وسمعت زقزقة حذائه وهو يخطو .. وخرج .. وجلست هى فى أحد الأركان .. لا تفكر .. بل ترى .. تلك المروحة السريعة ذات المحرك الضخم تدور أمام عينيها .

وفى المساء أحسست عندما رأت فتاة ابنها كأنها رأتها من قبل. وكان هو فى قمة السعادة .. تنسحب نظراته باستمرار على خديها الممتلئتين وشعرها الداكن ، وتبدو إلى جواره كأنها فى الثلاثين ولو أنها فى حقيقة الأمر لا تجاوز الثمانية والعشرين .

وبدا فى الموقف شىء من التناقض فى مرآة عكست صورة الثلاثة .. أم صغيرة .. وزوجة كبيرة .. وشاب لقفته أول شبكة ..

وأخذ سمير يتحدث عن القصة ببطئه المألوف « فقد تعرف على شقيقها على الشاطىء فى الصيف الماضى .. »

وعندئذ تذكرت الأم أين رأت هذه الفتاة . هناك فى الإسكندرية .. وتركت ابنها يكمل قصته :

« ومن الغريب أن أباه هو ميت وأن أمها هى .. ميتة » !

وضحك سمير . ضحك بسذاجة الطفل حين يلهو بلعبة الكبريت ولم يشعر أن هذه الكلمة صدمت إحساس الأم صدمة شديدة . حين تصورت أنهم يريدون أن يقولوا أن رجلا أرمل وامرأة أرملة سيلتقيان دائما بعد زواج الفتى والفتاة . وأن حياتها أصبحت فى خيال بعض من لا يعرفها سلعة تسام بطريقة لا ترضيها .

كانت تأكل معهما وتشرب الشاى .. ولم يكن سمير ابنها أكثر من نظرات عبادة .. كانت الأم خلالها تعود بعض فترات إلى رمال الشاطىء لتمسك بأول خيط من حوادث حياتها المهمة . فعاودتها قصة رجلين غرقا فى الإسكندرية .. قصة الأب الذى كان يعمل كل شىء بسرعة حتى السباحة فتذكرت الأصيل الذى توغل فيه فى البحر فلم يعد إلاغريقا .. وقصة جديدة .. قصة الابن الذى غرق على الشاطىء .. على الرمل ..

فكظمت مافى نفسها ، وخرج ابنها يودع الفتاة ثم عاد إلى البيت .

كان طبيعيا أن يسألها رأيها ، وكان مفهوما لديها أن كل شىء قد أبرم . فهمت بغريزة المرأة أن انفصاله عن أمه لم يتم بالتدريج .. فقد التقت حواء بآدم التائه الجائع العطشان فأمسكت به من يده ودلته على الطريق .. إليها هى .. إلى كهفها الملىء بالأساطير .

ــ ألم تلاحظ أنها أكبر منك سنا ؟! إنها تبدو وكأنها أختى الصغيرة ؟!



ـــــ حواء بآدم الجائع العطشان ..

ـ إننى لا أحب الطائشات .

فترددت ثم قالت :

ـ إنك تسألنى رأيى !!

ـ عندما تعرفينها .. مثلى .. ستجدين فيها مزايا غريبة !

ضحكت الأم من قلبها . كان الجدال نوعا من العبث . وتذكرت أنها ستسلم الوديعة كمدير أى بنك . كما أسلمها أبوها وكما أسلم شقيقها . لكن ..

« ألا يمكن رده إلى طريق الصواب ياربى ؟! »

لكن « سمير » كان يرى أن الصواب هو عين مايعمل .. زواج !! .. شىء طبيعى !.. كان يسمع أمه وهى تدعو أن تعيش حتى ترى هذا اليوم ! ..

كل هذا كان يدور فى فكره لكن .. لكن لم يخطر ببال « سمير » مدى أهمية المشكلة النفسية التى تنجم عن غياب شىء عزيز مألوف مرة واحدة حتى ولو كان هذا الشىء قطة .

لم يدر فى فكره مدى ماتعانيه أم شابة تريد أن تحتفظ بعدة أشياء : فيها كرامة نفسها وفيها سعادة ابنها . وفيها عدم كرهها له .. وكانت الأم تحتضن كل هذه الأمانى فى انتظار من لايملك إلا الانتظار .

وذات مساء أعلن الابن حكمة جديدة . نقلها عن لسان صهره والد العروس .. تلك الحكمة هى أن « الفرح نهبة » .

ثم استطرد يشرح هذا القانون بأن فرصة الأفراح يجب أن تخطف بسرعة لأن الأيام لاضمان لها ..

أليس من الجائز أن يموت أحد .. من .. الناس ؟!

كانت الأم فى هذه اللحظة تحيك له بعض الملابس الداخلية ، فابتسمت وهى تنظر إلى القماش سائلة نفسها عمن عسى أن يخافوا من الموت ؟!

وشعرت أن كل شىء يبرم دون رأيها . ومادامت هى لارأى لها فى الأصل فإن التفاصيل لم تعد تعنيها .

شعرت أنها ترى سفينة تحمل حبيبا مسافرا تبتعد عن شاطىء وقفت عليه ، وقلبها فى كفها تلوح به .. والسفينة تبتعد وحبيبها يلهو مع من معه .. وهو غافل عن يدها التى تلوح له .

وشق على نفسها الموقف فكادت دمعة من عينيها تسقط على قماش « سمير » .غير أنها كانت قد عودت نفسها على كبح كل مايمس كرامتها .. فقد وهبت ابنها كل مافى العمر من ليال من الممكن أن تكون أعز متعة .. غير أنها رأت نفسها بخيلة بساعة واحدة تعطى فيها من كرامتها جزءا .

وأصبحت شقتها تضم أربعة . بعد أن فوجئت بأهل العروسة يدخلون أثاث غرفة النوم ليلتقى العروسان .

وكان الصمت الذى سبق هذا العمل سببا فى جعله أشبه بالغزو .. فماذا لو سكن الابن فى الخارج ؟!

وقد طرأت هذه الفكرة على رأسهم لكنهم رأوا حمل أخف الأضرار فضلا على منفعة التعجيل بالزفاف .

ومنذ ليلة الدخلة وسمير لم يتناول طعاما مع أمه .. وقد مضى على ذلك شهران . عندئذ أحست أنها تذبل .. شعرت أنها نبات غيرمزروع .. مستنبت فى قطعة من القطن المبلل كما كان يفعل سمير بالقمح والحلبة وهو صغير . أحست أن ازدهارها وقتى وأنها سستنتهى بجفاف القطن .

أما فى الحجرة البعيدة فى شقتها فقد كانت الحياة تمضى بأنانية بدت غاية فى التناقض مع ماسلف أن قدمته .

أحست بأن دفء الأمان والحب بدأيتحول إلى النار فخافت على قلبها .. قلبها الدقاق .. وقلبها « سمير » ثم سهرت فى ظلام غرفتها تفكر . ماذا تعمل لتجعل هذا البناء الذى عملته وحدها سليما حتى ولو أمام الناس ؟! من المحال أن تخرج من الشقة وتسكن وحدها .. ومن المحال أن تفعل العكس .

وكانت تستيقظ كل صباح على قىء الزوجة فى الحوض فتنهض لترى ابنها ممسكا بها .. وفرحه بانتظار المولود يغالب حزنه لموقف زوجته ..

وعند ذلك تحييهم وتدعو لهم ويرد « سمير » دون أن يرفع وجهه عن الحوض ، بينما الأم واقفة على قرب .

ثم ما لبثت الأم أن تذكرت شيئا .. أناس سيخطرون على بال

الناس وهم فى الأزمات كما نذكر اسم دواء نافع . فقد تذكرت سيدة .. كانت زميلة لها فى المدرسة . ظلت تقرأ اسمها فى الصحف طوال هذه السنوات ، فقررت مقابلتها .

وفعلت ..

وبعد ذلك بشهرين كانت الأم تملأ إحدى الحقائب بملابسها الخاصة .

سألها ابنها فى دهشة :

ــ إلى أين ياماما ؟

فقالت بهدوء :

ــ سأترك لك عنوانى .

فتبادل الزوجان نظرة ذات معنى .. فهما أنها ستعيد مافات .. فهما أنها ستتزوج .. فهزا رأسيهما فى هدوء من تشرب فكرة .

لكن ..

فى المساء ..

كانت الأم فى إحدى دور حضانة الأطفال مشرفة مقيمة تملأ عينيها الشابتين بالخليقة الجديدة وتتمتع بالحرية التى منحتها لغيرها .

خيوط النور

أول مريض أذكره فى قريتنا أذكره تماما .. كان ذاهبا إلى من أطلقوا عليه الدكتور « فوتى » على حمار بطىء يتسحب وكأنه مريض ، وإلى جانبيه رجلان يسندانه على وجوههما علامات يأس وألم. ورأس المريض يتمايل مرة يمينا ومرة شمالا . وأنا أسترق الخطى خلف الموكب لأرى ماذا سيحدث ...

كان فى يدى ثمرة واحدة من فاكهة « الجوافة » أقطم منها فى شرود . رائحتها فى أنفى وقشرها فى حلقى وبذرة منها لى أضراسى . وفى تأمل ونسيان سعيت خلف المريض ، وأنا أتخيله فى عيادة الدكتور « فوتى » وأذكر خلال هذا كله أمى المريضة فى الدار .

كان الموكب فى طريقه إلى الدكتور « فوتى » ... فى مخزن الأدوية الواقع على الترعة . وكان هو الطبيب الوحيد فى بلد تعداده عشرون ألفا لايقع على السكة الحديد ولا الملاحة النهرية يكاد يكون معزولا لا يشعر به أحد . ولذلك فإن مهارة « فوتى » تجلت فى اختياره لهذا المكان كمصدر للكسب .. فى زمن لم يكن فيه علم ولا نور . وهناك على الترعة الرئيسية التى بنيت عليها بيوت الوجهاء فتح مخزن أدوية وسكن فى حجرتين فوق . تطل نوافذهما العتيقة على مساكن البلد . ومن وراء مصاريعهما كان يسمع نداء الملهوفين الذين

جاءوا لدفع النقود .. فى نظره .. قبل شكوى الألم .

كنت أسير وراء المريض وفى ذهنى أفكار سمعتها من أمى . وفى قلبى شوق لرؤية مايستعمله « فوتى » فى إعادة الحياة إلى المريض . وعند منعرج الطريق لاحت العيادة فى المخزن وبدا عدد من الفلاحين متزاحمين عند بابها فى جلابيب داكنة وقلنسوات صوفية . وحمل المريض إلى الداخل وأرقدوه على دكة من الخشب ووضعوا تحت رأسه « تلفيعة » فلاح ريثما يفرغ « فوتى » من المريض السابق ..

وتسللت وسط الجمع وبقية ثمرة « الجوافة » فى جيبى وفى نفسى شوق يملؤها لأن أرى صراع الإنسان لإعادة الحياة إلى إنسان ... فطالما حلمت بأن أرى عملية جراحية أو شيئا خارقا . ووقف الجميع باحترام ... فى انتظار « فوتى » ولاح لنا وجهه الأحمر وعوده القصير ورأسه الكبير الذى ملأه الشيب . وفى عنقه « السماعة » وكلمات الترحيب تتواتر من فمه بلغة التجار تشوبها لكنة أجنبية تثير ضحك الأطفال . فقد كان رجلا مجهول الجنسية .. قيل أصله يونانى وقيل أصله أرمنى .. وكل ما يعنى أنه لم يتعلم فى مصر وقالوا إنه يحمل شهادة من إحدى بلاد ألمانيا ، ثم قالوا إنه طبيب على كل حال تراه الحكومة فلو كان شيئا ضارا .. لمنع !! ثم إنه أيضا كتب اسمه على لافتة مخزن الأدوية فيها « الدكتور أفستيادس » ولهذا كانوا ينادونه باسم « فوتى » .

ــ أهلا وسهلا .. يابركة أولياء الله !!

وبهذه اللازمة كان يبدأ « فوتى » عمله مع كل مريض وكانت اللكنة القاسية التى تلون نطقه بالتحية والدعاء لكنة الغرباء عن كل مايقولون تلقى فى نفوس الفلاحين معانى غامضة . وتجعلهم يميلون إلى الاعتقاد بأنه عما قريب سيتغير .. ربما صار ريفيا له نفس تقاليدهم وأحب الأرض .. وربما تزوج وعاش هناك وأنجب .

وقال « فوتى » بلكنته الثقيلة للمريض الراقد على الدكة « أهلا وسهلا يا بركة أولياء الله » ثم سأل عما به . والسماعة على مقربة من أذنيه .. فلم يجب المريض ... كان يتنفس بصعوبة ... وسارع فى الشكوى والوصف من كانوا معه واحد تلو الآخر وهويهز رأسه الكبير فى فهم لا يبدو فى عينيه ثم حقنه فى ذراعه وأعطاه شرابا فى زجاجة . لكن المريض وهو راجع لم يستطع الركوب بل حمله الرجلان على كرسى وأعادوه إلى البيت .

وعدت خلف الموكب ... ثمرة الجوافة لا تزال فى يدى ، آخذ قضمة ثم أنسى . وأذكر أمى المريضة وخوفها من « فوتى » حتى وصل الرجل إلى داره .. وقبل أن ينصرف المهتمون بالأمر ... رنت صرخة وقوع « الموت » .

***

منذ ذلك التاريخ وشخصية « فوتى » مقرونة عندى بذكرى الموت .. وكبرت وكبر هو . وكبرت ثروته كذلك . وظل أعزب لا يريد أن يتزوج . واقتنى عربة نادرة حاول الأعيان تقليده فيها ... وكلبا روميا

يركب إلى جواره ... كبير الحجم لايفارقه أبدا

نسج حوله الناس قصصا غريبا . قالوا إنه يسقيه الدواء إذا مرض ، ويقيس حرارته في المناسبات ويغسله بنفسه في الحمام . ويصحبه في رحلات الصيد .

ففي أيام الآحاد كان يقفل مخزن الأدوية ويرى في قميص زاهي اللون ، بمربعات على هيئة شطرنج وحذاء برقبة وفي كتفه بندقية والكلب وراءه وكان هذا المنظر في القرية نادرا وغريبا أول الأمرثم ألف وعرف بمرور الزمن أن « فوتي » في الصيد أمهر منه في الطب . وفي رعاية الكلاب أرقى من رعاية الإنسان لأنه لم يتزوج ولم يتخذ خادما ، بل كان يفعل كل شيء بيده ليدخر أجرة ما يفعله له أي إنسان .

***

كنا نتحدث في حلقات اللعب التي نعقدها في الخلاء في ليالي الصيف تحت القمر أو النجوم عن نبوغ أخي في المدرسة . أخي الكبير. وكنت مولعا بأن أنسج حوله الأساطير . « انه لايهزم ... حتى المدرسون يخافون من ذكائه ... تنبأ أحد المفتشين له بالعظمة وتنبأت له أمام أمي بنفس الشيء ضاربة الودع ».

وأقسمت على هذا أمام الغلمان . ونحن متحلقون حول لا شيء بعد جهد جري طويل ، ورد أحدهم ممن كانوا يغارون مني : « يعني ... أخوك ... الدكتور فوتي ؟! »

كانت أمي تتمنى له أن يكون طبيبا .. وكأنما كانت هذه الأمنية

صادرة من أوجاعها أكثر مما هى صادرة من عقلها . وكان أبى فلاحا فقيرا لا يقدر على نفقات المدينة . مثله مثل كل فلاح يفضل أقرب « طبيب » ويزور أبعد « ضريح » ولذلك فإن أمى كانت إحدى موارد « فوتى » حتى يئست وكفت .

ثم اهتزت القرية على حادثة كبرى . أول حادثة من نوعها تجعل الناس ينشغلون .. هى .. دخول أخى كلية الطب لأنه كان أول القطر فى شهادة البكالوريا التى أتم بها تعليمه الثانوى .

كان « فوتى » يومئذ فى زيارة العمدة . وكانت الزيارة مجرد سؤال عن صحة . بلا مقابل ... إلا جوالا من البطاطس أو حملا من البطيخ .

وكان العمدة يومئذ فى نشوة ناظر المدرسة الذى حصلت مدرسته على « الكأس » فى إحدى المباريات .حرر قدميه من الحذاء والجوارب واتكأ على الكنبة رجلا على رجل ، وقال لفوتى :

ـ ما رأيك فى شبان بلدنا ياسيدى ؟!

ـ مالهم ؟ سلامتهم ... (وضحك) كلهم مرضى بالبلهارسيا ، وثلث المرضى بها مريض بالكلى ... والثلث الثانى مريض بالطحال .. (وامتد ضحكه) .. أهنيك يا حضرة العمدة .

وعجب الحاضرون . فقد برزت حقيقة « فوتى » فى كلماته وعينيه وملامحه . ونبح كلبه فى الخارج فى العربة كأنه يذكره بوجوده . وبدا على وجه العمدة غضب الريفى الذى خدش عرضه . فاعتدل فى

جلسته وقال له :

ـ (معلهش) .. نستحق منك كل هذا .. فالحق علينا .. ومن نقود الذين تسبهم يا « فوتى » ركبت عربة وصاحبت كلبا .. و .. .

فضحك الفلاحون . ضحكوا من كل قلوبهم . وأيقنو أن القضية قضية حقد . على حين استطرد العمدة الذى مال وتناول حذاءه ليلبسه قبل الانصراف ... استطرد قائلا :

ـ إن ابن بلدى سيكون طبيبا بعد خمس سنين .. والحكم بكرة..

عندئذ قام « فوتى » مستخزيا وأخذ رأس العمدة بين راحتيه وقبله معتذرا . وقد احتقن وجهه . ثم سار معه إلى الخارج ... حيث تنتظره عربته وكلبه .

***

زغردت مريضة بمرض مزمن فى قريتنا عندما علمت بخبرتخرج أخى من كلية الطب . أما أنا فقد بكيت ... لأن هناك فما كان أولى بهذه الزغرودة هو فم أمى ... التى كانت قد ماتت قبل ذلك بسنة .

وفى ذلك اليوم كان الفلاحون يجرون خلف عربة « فوتى » ليبلغوه النبأ ولم يكن يرد . كان كل ما فيه حزينا . كان خائفا من النور . وكان فى مرضى البلهارسيا والطحال الذين قال عنهم ذلك ناس من الممكن أن يكونوا « مشاعل » لكنه دخل بلدنا تحت جنح الظلام ... ظلام الزمن لا ظلام الليل .. كأحد المغامرين الذين يبحثون عن جزيرة الكنز عبر الأقيانوس .

***

ولم يكن أخى يستطيع الإقامة فى القرية لأن الحكومة عينته فى مستشفى بعيد عنها . لكنه جعل لقريته أياما محددة فى نهاية الأسبوع . فكانت منظرة دارنا تمتلىء بهم وكان ينتقل هو إلى الوالدات والمأزومين .

حب الوطن ؟ .. حب الأهل ؟ .. حب أنه يريد أن يفيد بمايعرفه؟ .. حب تخليص النفوس من الآلام ؟

واحد من هؤلاء أو هؤلاء جميعا دفع أحد شبان القرية أن يخدم القرية . بصرف النظر عن « فوتى » وكلبه وعربته وثروته وجنسيته المجهولة وبخله واكتنازه المال .

وأخذ تزاحم المرضى حول مخزن الأدوية يقل وأخذ الدخل فى التناقص تبعا لذلك . وشعر « فوتى » بالفراغ .. فأخذ يخرج إلى الصيد مرتين فى الأسبوع ويسافر مرة إلى البندر حيث يتسلى بأى لعبة !!

كان يطلق بندقيته على الصيد وقلما يخطىء . والكلب من ورائه يعوى فى أعقاب كل طلقة...

وأحس « فوتى » أن حياته أصبحت فارغة بعد أن سرق أحد الفلاحين منه شيئا .. كان تافها للغاية لكنه كان بالغ الأهمية .

كان فى مخزن الأدوية يعد الحقنة لمريض حينما سمع صوت شىء يتحطم من سقوطه على الأرض . وسارع « فوتى » إلى الداخل وبعد قليل عاد يعلن أن القط أسقط زجاجة كانت على إحدى المناضد وهو



بعد هذه الحادثة أصبح كل شيء واضحا

يطارد حشرة . ثم جعل « فوتى » يتذكر ماذا كان بصدد عمله ، ثم أحضر الدواء وحقن المريض .

وخرج الفلاح المريض من عنده مهللا فقد أمسك بأول خيط يثبت الإشاعات . لقد سرق الأنبوبة وسيعرف نوع الدواء .. إنها أنبوبة خرساء ليس عليها ورقة مكتوبة.

وأخذها الطبيب الجديد .. الابن الشرعى لبلده .. وتبين أن فيها شيئا .. شيئا لا يضر ولاينفع .. ماء ملح .. طالما حقن به الناس .. قبل ظهور النور قائلا : « أهلا وسهلا يا بركة أولياء الله ! » بلكنة تجعل كل شيء غريبا حتى وجهه الشهواني .

وبعد هذه الحادثة أصبح كل شيء واضحا . ولم يعد أحد من الفلاحين يحن إلى عهد الظلام . كانوا ينتظرون نهاية الأسبوع بلذة الجائع فى نهار الصوم ، وانقطع مورد « فوتى » وكان عليه أن يبحث عن مسقط رأسه من جديد بعد بلوغه الستين من العمر بلا زوجة ولا ولد . لكن بمال وكنوز .

ولعله سهر يحسب الأيام . فوجد نفسه قد انفصل عن مسقط رأسه بمسافة وزمن . مسافة آلاف من الكيلومترات وآلاف من الأيام ربما بلغت عشرين ألف يوم .. فخاف !!

وأصبحت أيامه كلها صيدا . رآه أحد الفلاحين وهو واقف فى الفضاء يطلق النار على الطيور بشراسة . وأكد أنه كان فى أحيان كثيرة يطلق النار على لا شيء . حيث السماء خالية والأشجار لا طير

فوقها . وكانت الجعبة مليئة بالطلقات ، وكلما دوت طلقة نبح كلبه وعاد هو من جديد إلى حشو البندقية .

وساورت الفلاح شكوك . فقد كانت الظواهر تدل على أن « فوتى » صار نصف مجنون ... إنه يطلق بندقيته على لاشىء . وكلبه ينبح ولا أحد منهما يتوقف .

وأخيرا صرخ الفلاح .. ونهض يجرى من مكمنه .. فقد أصابت الطلقة رجلا ولم تصب طائرا ... وسقط الرجل يتلوى لأنها أصابته فى مقتل .. أصابته فى صدره ... وأخذ الدم ينزف منه ..

ولم يكن هذا المصاب إلا« فوتى » نفسه . تلفت بندقيته من سوء استعمالها فى الأيام الأخيرة فارتد عليه الطلق ، وصارينزف .. وينزف .. وينزف .. حتى مات . والكلب ينظر إليه فى ذعر .

وعندما عاد أخى الطبيب آخر النهارتمنى لو كان أدركه فمد إليه يد الرحمة .

***

لايزال مخزن « فوتى » قائما على الترعة يحمل نفس اللافتة « الدكتور أفستديادس » وشقته مغلقة حتى يعرف له أهل ، لكن الجيل الجديد من أبناء قريتنا يقرأون هذه اللافتة كلما مروا عليها عامدين .. وبصوت مرتفع .. وكأنهم يؤكدون لنفسهم أنها صفحة من تاريخ زائف مزقتها يد الحقيقة تحت أشعة شمس مصر الساطعة .

العودة إلى التيه

هناك بضعة كيلو مترات لا بد أن يمشيها لكى يصل إلى الدار التى بات يحلم بها أربعين يوما ..

وكان ينأى باستمرار عن الطريق الرئيسية لا لشىء إلا ليختصر الطريق . والأرض من حوله .. حقول .. وترع جافة .. وأشجار عراها الشتاء من أوراقها . أما السماء فقد بدت رخيمة لاسحاب ولامطر ، والشمس تلقى بأشعتها على الأرض التى ندتها أمطار الأسبوع الماضى ، كان يحسها تحت قدميه العاريتين فى الأماكن التى لم تجف بعد .

كان طويلا يميل إلى الانحناء شيئا ما ، فى وسطه حزام عريض من الصوف غزله ونسجه وشده على وسطه ... وكان يشعر بعد أن يشده أن جسمه أكثر تماسكا وقوة سريع المشية مع طوله يهرول بطريقة تدعو إلى الانتباه ، وقد شمر أذيال الجلباب بواسطة الحزام ، ومشى على الأرض الندية ليقطع بضعة كيلو مترات إلى الدار التى لم يرها منذ أربعين يوما .. وحده على الطريق .. على كتفه فأس ينقلها إلى الكتف الأخرى إذا ما أحس بالتعب وفى يد الفأس الخشبية علق « جردل » من الصاج يترنح من المشية فيحدث صوتا من الممكن أن يكون مسليا لعابرالسبيل .. صوتا معدنيا خاويا « ترن .. طن .. ترن .. طن » ليس بينه فرق

كبير وبين الصوت المعدنى الذى ينبعث من « مفصلة » شباكه حين تعابثه ريح الخماسين . وبحركة غير إرادية ألفى يده تحرك يد الفأس من اليمين إلى الشمال لكى يستمر صدور الصوت ، وكان الطريق خاليا فأسبل عينيه ، وسرى الدفء فى أوصاله من الشمس المتحررة من كل سحاب فأحس كأنه فى الحجرة العلوية فى داره والشباك فيها يبعث الأزيز « ترن .. طن » والليلة ليلة سوق .. وصحن الدار قد عبق بروائح مختلفة أقلها رائحة التوابل من حلة نحاسية على الكانون جلست أمامها زوجته ..

وعندما دخلت صورة زوجته فى نطاق أفكاره أخذ يحرك يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى قويا حاسما مؤكدا أنه فى الدار وأن ريح الخماسين تهز عليهما الشباك ..

لكنه ما لبث أن تنهد وفتح عينيه ... كان كل شىء من حوله كما هو ، والطريق الممتد والأشجار العارية ... والترع الجافة ....

إنه منذ أربعين يوما لم يذق دفء الحنان ، سكينة زوجته فى الدار وهو نائم فى الخيمة بين عمال الترحيلة .. رجل جنب رجل على فراش من القش ، كانوا يضحكون ويتبادلون النكت ويذكر كل منهم صاحبه بزوجته ، وتتأجج النار فى الحطب جنبهم حتى تخبو فيخبو كل شىء فى المكان .. حتى الأرواح حتى الأحلام ... فكم مرة استيقظ عابر السبيل هذا وهو يدعو على الشيطان ... الذى طالما نقل إليه عبر الأحلام فى شبابه نساء لا يعرف صورهم ، ثم حرمه من حنان سكينة طوال ليالى

الغيبة .. وقد كان مشتاقا إليها .

وأحس بوهج غير عادي يسري في أوصاله ، شعر برغبة في عمل ما يؤكد الحياة ... يؤكد الحياة فيه هو ... في هذه اللحظة .. وتوا .

شعر أنه محتاج إلى أن يأكل أو أن يشرب أو يدخن ... على الأقل . لكنه تذكر أنه لايحمل طعاما فقد أكلت الليالى الأربعون كل نقوده وزاده وقواه ، فلم يبق معه حتى أجرة القطار ، غير أنه أحس بقوة أعظم من المألوف ، فعندما يصل سيجد سكينة جالسة أمام الكانون ... لاشك في ذلك ... فاليوم هويوم السوق وعند أذان العصر سيطرق عليها الباب فجأة ... بتلك الحلقة الحديدية الكبيرة التى تشبه الخلخال ...

وتبسم ، وجرى ريقه ... تحلب بغزارة كمن شم راحة الشواء ، وحرك يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى . إنه قريب من صوت الشباك حين تحركه الريح وهو جالس مع سكينة ..

ما أجمل وهج النار على وجهها الشاحب ... إنه يكسو ضعفها حمرة يود أن تدوم ، غير أنه في سبيلها يقطع الآن كل هذه الكيلومترات مشيا على قدميه ، لقد نزل البندر ذات يوم فاشترى لها منديلا من الحرير ، كبيرا تعصب به رأسها ، من أجل ذلك تلفت الحسبة فلم يجد مايكفيه ، غير أنه لم يلبث إلا قليلا حتى عاد إليه اقتناعه بأن ابتسامة حلوة من وجهها الذى يشبه الآن وجوه الأطفال سينسيه كل المتاعب ..



وعاد يهز يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى .. « ترن .. طن .. ترن .. طن » فأخذ نفسا عميقا .. « آه .. هانت .. أنا الآن فى نصف الطريق » ومع تنهد الراحة دخل إلى مخيلته صوت جديد من خلال حركة الفأس هو صوت طشت النحاس حين تلقى به زوجته أمام رجليه وتصب فيه ماء ساخنا .... يضع فيه قدميه فيغمر البخار وجهه وتوقظ الحرارة قدميه المتينتين وتتمشى يد سكينة على ساقه لتغسل عنها الطين والتعب ويغمض عينيه ويسند ظهره ورأسه إلى الجدار فى استسلام من يلقى بالهموم .. والزمام .. والحب .. فى وهلة صغيرة ..

لكنه فجأة أفاق من هذه الأحلام ، أحس ببرد طارىء يسرى فى بدنه .. ولم يكن قد فطن بعد إلى أن الشمس قد غامت ، هناك سحاب فضولى جبار لايعرف العواصف طمس مصدر الدفء ، وبلاقصد وجد نفسه ينفخ فى السماء كأنه أراد أن يكشط عن السماء سحابة كما يفعل عادة برغوة اللبن ، وضحك وحده فى الخلاء ونظر فإذا خضرة الحقول تتحول إلى دكنة بعد أن انسحبت أشعة الشمس ، واندفع قلقه فجأة إلى رجليه .. أحس أنه يثب أحيانا ويعدو أحيانا .. وتلفت فخشى أن يظن به الناس الظنون .. كسارق أو مجنون ، فعاد يمشى الهوينا .. ويهز الفأس لترسل إليه لحنها الساحر من خلال المعدن الصامت الذى كساه الصدأ .

ومالبث أن سأل نفسه : « هل تحس سكينة الآن وهى فى الدار بما أقاسيه على الطريق ؟! » وأجاب عن سؤاله بابتسامة ، وهز رأسه

مؤمنا على أفكاره التى بداخل رأسه :

ـ إنها تحبه .. حقيقة أن جمالها مصدر عذاب له ، فلو لم تكن جميلة ماترك مزرعة كامل جمعة التى كان يعمل فيها أجيرا دائما .. لكنه شم رائحة الخطر ، فلكى يمنع سكينة عن حقول كامل كان لابد أن يخرج منها ، واتخذ هذا القرار فى ليلة سوداء نشب العراك بينه وبين سكينة عدة ساعات منذ سنة .. وريح الخماسين تزعزع مصراع الشباك فتزقزق المفصلة « هكذا » ..

وأخذ يهز يد الفأس فينبعث الصرير المعدنى ، وتغير جوه النفسى كما تغيرالجو الخارجى ، وبدأ سحاب داكن يفد من الشمال الغربى .

ورحبت خضرة الحقول بتلك اللمسة الندية فتمايلت فى انتظار الشرب ، وشعر هو بالخوف « فجأة » كأن هذه الريح ستهب فتخطف سكينة أوتغرقه بطوفانها .

وتوقف عن السير وجلس فى تعريشة من الحطب على رأس حقل لكى يستريح .. شعر بالعناء عندما جلس ، وكان الهواء يعابث الأوراق الجافة الباقية فى الحطب فيرسل صوتا خشنا ، ومدد ساقيه وتأوه .

« لو لم أشتر المنديل لسكينة لارتحت من هذا العذاب » لكن .. ماأجمل لون وجهها تحت منديل طرابيشى .. إنه أقرب ما يكون إلى وجوه البنات فى صباح الأعياد

وكان متاعه أمامه .. الفأس والجردل .. كانا كأنهما ينظران إليه بنظرة ودية .. أصدقاؤه فى القحط وعدته ومصدر رزقه .. واضطجع ..

كأن المكان مسوى ممهدا .. سواه إنسان ما رقد فيه من قبل ، ربما وحده .. وربما مع أحد .. وتبسم .. وسحب عدته إلى الأمام لتكون فى مأمن معه فى هذا الكن .. وخيل إليه أنه يرى حيوانات أليفة فى الفأس والجردل .. كائنات حية لاتنطق ، فيها مودة صموت من قبيل آخرغير مناغاة سكينة .

وهنا تحسس جيبه فخشخشت الورقة التى لف فيها المنديل .. كانت فى جيب الصدارى ، تحت إبطه الأيسر ، فجعل يضغط ويضغط وأغمض عينيه .. وخيل إليه أنه يضغط على رأس زوجته وأنها تتأوه فى استزادة وهناك دفء ينبعث من بطن الفرن مع رائحة خبيز .. « آه .. شىء لذيذ أن .. نشعر ..بالدفء .. بعد .. مشوااا ر ... طويـ يـ يـ ل » .

***

سمع ضجة معدنية كانت صادرة من « الجردل » حينما مد ساقه فأصابته فترنح فسقط .. وعندئذ استيقظ من النوم !! .

وجد نفسه فى مكانه من تعريشة الحطب ، منحته الدفء فنام ، وحلم أنه فى أحضان سكينة ، ومد رجله فأسقط « الجردل » فاستيقظ. فكرة أدخلته فى حلم .. وخبطة أخرجته منه .. ذلك شأن المتعبين .

غير أن الذعر ملأ بدنه كأنه ضاع فى اليم . كان الجو قاتما وسماء تنذر بالمطر والنهارقارب أن ينتهى ، فانتفض وتمطى وعلق الجردل فى يد الفأس وحملها على كتفه ، وسارلايفكر فى شىء إلا أنه يمشى ،

وكان النوم قد أمده بقوة جديدة ولو أنه أحس بالجوع .

ولاحت له مداخل القرية . إنه يعرفها .. هذا هو نور « الكلب » يسطع من وراء نوافذ كامل جمعة المغلقة .. « الجبار .. كان يراود عنى سكينة .. سبب عذابى » وتنهد وسره أن يدخل فى الظلام فقد تأخرعن بقية الأنفار لأنه مرض أربعة أيام فعوضها فى فرقة أخرى .. وذلك على كل حال خير من استرداد النقود .. « النقود « ؟ وهز كتفه الحرة التى لاتحمل شيئا لكن ذلك أدى إلى سماع الصوت المعدنى الذى ملأ إحساسه طول الطريق .

***

وحرك حلقة الباب الحديدية التى تشبه الخلخال فى رفق فأرسلت دقات قلقة . وأتاه صوت سكينة من الداخل يقول « مين » ، وفتحت الباب فعرفت جرمه الطويل الذي سد فرجة الباب كلها فهتفت كأنها تدارى سرا : « سليمان .. حمدا لله على السلامة » فحرر يديه ثم احتضنها ..

***

وكانت خطا الليل تتقدم .. والدفء فى القاعة ممزوج برائحة الدهن والخبيز واللحم والبصل .. وفى الركن تحت حمالة الملابس أطفال ناموا مبكرين .وكان سليمان يحكى لسكينة عن كل مالاقى ..

وتحسس المنديل الجديد على رأسها .. ذلك المنديل الذى اشتراه بثمن تذكرة السكة الحديد .. وكان على الفرن وعاء من النحاس فيه ماء

ساخن ينتظر حتى الصباح .. وأخيرا ضحك سليمان قائلا لسكينة وهو يبتسم للنوم الحقيقى : « كنت واحشانى ياسكينة » فإذا بها تبكى .

فطار النوم من عينيه وأخذ يسألها عن السبب فاعتصمت بالصمت ، فلما ألح وثار قالت له :

ـ أصل .. آه .. كامل جمعة سأل عليك ؟!

فجف ريقه وهمس سائلا :

ـ على أنا ؟! والسبب ؟!

ـ يمكن تكون تحب تشتغل فى أرضه .. يمكن !

فتعلق الكلام بينهما فترة كأنه تجمد ثم رد ثائرا محسورا :

ـ أنا ؟! طبعا غير ممكن !!

فأطرقت تبكى وقالت بعد قليل :

ـ طيب .. وليه تأخرت أربعة أيام زيادة ؟

ـ انت عارفة السبب ياسكينة ؟!

فقالت من خلال دموعها وشهقاتها بطريقة لايمكن أن يصل إلى أعماقها سليمان الحكيم لاسليمان الزوج :

ـ أنا كنت عارفة إنك رافض الرجوع عند كامل جمعة .. وعارفة ان الشغل ضرورى ..آ ..آ ..

شهق الرجل .. كاد نفسه ينقطع . فقد أدرك أن سكينة قد قبضت له أجر أربعين يوما أخرى من المقاول . وهذا هو سر رائحة الخبيز .. فقد جهزت « الزوادة » .. وهذا هوالسر أيضا فى اللحم والدهن ورائحة

التوابل .. وليلة واحدة دفيئة فى الدار .. كان من الممكن أن تكون ليالى أربع لو لم يتأخر هو هناك ..

وساد الصمت لكن سليمان مالبث أن نهض جالسا وقال بلهجة حماسية كان لامفر منها لمن أجبرعلى خوض المعركة :

ـ سكينة .. أنا مسافر .. الشرف و .. كامل جمعة ..

كان الوقت متأخرا عندما وقف فى محطة « طنطا » القطار القادم من « دسوق » وعدد المسافرين غير كبير فلم تبد الأرصفة فى هذه الليلة مزدحمة .. فمن السهل أن تلتقط العين شبح من تنتظره على الرصيف .

وسرعان ماتناهى إلى السمع والبصرهمس الركاب إلى الحمالين ووقع الأقدام غير المنتظم واختلاف الاتجاهات نحوالممرات السفلية .

وكل الناس يتحركون بسرعة لأن الشتاء كان فى مستهله . والذين لايحملون متاعا يضعون أيديهم فى جيوب معاطفهم .. وهكذا فعل رجل ربعة يميل إلى الامتلاء يرتدى معطفا أسود رفع ياقته إلى أعلى وطامن رأسه بين تلك الدائرة الصوفية حتى كاد أن يختفى نصف وجهه الأسفل .

كان يتحرك بسرعة نحو الممر السفلى لايلوى على شىء . وفى نقل قدميه قوة وفتوة واعتزار .تغلب الطمأنينة على ملامحه الواقع نصفها فى الظلام ونصفها فى النور .

وبدأ يهبط سلم الممر المؤدى إلى الخروج .. إلى المدينة . وكانت فى رأسه أفكارمنظمة ، بعضها يتعلق بالفندق الذى سيبيت فيه وبعضها يتعلق بالذين سيقابلهم فى اليوم التالى لإقامته فى المدينة .



سولت له نفسه أن ينظر وراه لكنه استنكف .

وعندما فرغ من هبوط السلم واستوى على أرض الممر شعر فجأة أن الرجل الذى خلفه ليس مسافرا عاديا بل كأن وقع أقدامه يتابع خطاه . وسولت له نفسه أن ينظر وراءه لكنه استنكف ومشى ببطء وهو ينظر إلى السقوف الفولاذية وإلى المصابيح الجانبية فى الممرات تارة بعد أخرى .

وملأت رائحة الرطوبة أنفه واستتب وقع الأقدام خلفه كأنها تطارده . فبدأ الشك يتحول إلى خوف ويطلق غريزة الخائف ألقى هذا المسافر بنظرة إلى الوراء ..

كان النور ضئيلا فى الممر فى هذه اللحظة لاحتراق أحد المصابيح فيه وتضاعف المسافة بين المصباحين الآخرين . لكن عين المسافر التقطت هيأة الرجل خلفه .كان طويلا عظيم الجثة لا يميل إلى الأناقة واسع الخطو لذلك لم تكن سرعة المسافر تجدى عليه شيئا ، فبسهولة كان يدركه ويصبح منه على قيد ذراع .

ولذلك وقر فى نفس المسافر أنه سيلحق به عند باب الخروج .. عندما يتوقف المسافرون ليقدموا تذاكرهم إلى عامل الباب ، وعند ذلك .. وفى النور يستطيع أن يفحص ملامح هذا الرجل الذى بث الرعب فى قلبه طوال عبوره الممر حتى كأنه قضى فيه نصف عام

لكن عند باب الخروج حدث شىء أعجب فقد تقدم الرجل وخرج دون أن ينظرإلى أحد . حتى عامل الباب لم يطلب منه تذكرة . وبدا كأنه يهرب من عامل الباب أو كأن الأخير يتغاضى عنه .

لكن المسافر على كل حال تنفس الصعداء عندما وقف فى الميدان الفسيح أمام مبنى المحطة وغمرت الأضواء وجهه وسرت إلى أنفه رائحة الخيل والعربات وسعى إليه حوذي متدثريعرض عليه أن يوصله إلى الفندق ، عندئذ وضع قدمه وصعد ليجلس فى الناحية اليمنى لكنه فطن إلى أن العربة تميل إلى الجانب الآخرحيث كان يركب فى الناحية اليسرى ذلك الرجل الذى تبعه فى الممر . وقبل أن تزايل الدهشة المسافر ، كان صوته القوى المتناسب مع طوله يهتف بالحوذي قائلا :

« عربجى .. إلى الشرطة .. إلى قسم أول !! »

***

وكان هناك شىء هام يحرس حركة المسافر بدا واضحا فى يد مرافقه فى العربة .. كان مسدسا ضخما . وكان وقع سنابل الخيل يبدو واضحا ولاشىء غيره . أما المسافر فإنه كان يرى وجه رفيقه فى نور المصابيح ثم فى الظلام تبعا لحركة العربة .

ويحاول أن يسأله لأى سبب هو مقبوض عليه .

لكن بدا كأن رفيقه يسمع صوت هواجسه فرفع صوته قائلا له : لاتحاول أن تسأل فأنت تعرف كل شىء .

عندئذ أطرق المسافر نحو أرض العربة وحاول أن يتناسى أين هو. وبدأ قلبه يدق بانتظام وصوت العجلات ووقع الحوافريصل إلى سمعه بانتظام ،

وملكته نفحة من السلام الغامض الذى لا ندرى له سببا والذى

لايهبط عادة إلى القلوب إلاعند اليأس .

ولم يخرجه من هذه المشاعر إلاشهقات رجال الشرطة الذين قابلوه فى مدخل القسم وهمس بعضهم .. « ياه .. الوجوه تتكلم .. أما مجرم صحيح » .

ولم يكن فى الحجرة التى أوصدوا بابها عليه أحد سواه . كان يعلم أنه سينتظر فيها زمنا علمه عند الله . إنه على كل حال فى انتظار المحقق . وخلع معطفه وجعل منه وسادة جلس عليها ومدد ساقيه فى فضاء الحجرة وابتعد عن الحائط ..

وكانت الأصوات بعيدة عنه لعزلة المكان الذى وضع فيه . لكنه كان يسمع بداخله هو كلاما كثيرا . أميز شىء فيه صوت امرأة هى أمه كانت تهتف بأعلى صوتها والغيظ يأخذ عليها مسالك الحكمة :

« .. كأنك لست ابننا .. ليس عندك شىء مقدس . وأنت فى الرابعة من العمركنت تذبح الدجاج بالزجاج وتقف ترقبه وهويترنح وأنت غارق فى الضحك . وسرقت صرة النقود من الشحاذ الأعمى وأنت تقوده فى الوحل .. وسرقت قرط أمك وأنت مراهق وأهديته إلى فتاة ولم يكن فى بيتنا ذهب سواه .. كأنك لست ابننا .. ألاتنظر إلى أخيك .. اجعله مثلا فى سلوكك .. لقد عفا عنك وأحبك مع أنك كتمت نفسه وكدت تزهق روحه ذات ليلة بعد خلاف دب بينكما » .

ويختفى صوت الأم ليخرج من أعماقه صوت غليظ أجش مسترخ كأنه متعب يلون اليأس نبراته لكن فيه رائحة من صوت قديس :

« ياربى .. كأنك لست ابنى .. ماعققت أبوى قط وتجازينى بالعقوق .. ومادخلت مركز الشرطة ولاوقفت أمام قاض عمرى ..السلام يملأ نفسى ولا أذكرالخوف إلا إذا رأيتك .. ألا تنظر إلى أخيك ؟! .. لشد ما أعجب حين أشعرأننى أب لابنين مثلكما .. لا بد أن تلقى جزاءك .. أنت مثل حى لعدم جدوى النصائح .. طريق الأخطاء أمامك ممهد باستمرار . قلت لك ذات يوم إنك ستكون قاطع طريق فقهقهت ضاحكا فلما سكت سألتك : هل آذتك نبوءتى ؟ فكان جوابك : بالعكس .. سرتنى وأرجو أن تتحقق .. لم أر ولدا مثلك كان معجبا برذائله ورذائل الناس .. لكن الناس سيقفون فى طريقك يوما ما كما وقفت فى طريقهم .. قلت لك ذات يوم إنك ستحيا فى غربة فأجبتنى بل سأحيا فى دنيا الغرائب .. فتمتع بما تمنيت لنفسك .. غيرأننى أريد أن أسألك قبل أن تلقى مصرعك عن تحكم العادة فى الشخص .. ألم يكن فى إمكانك أن تختارهواياتك وعاداتك وتفحصها قبل أن تكون عبدا لها .. أنا واثق أنك ابنى ومن صلبى وستعرف الدليل .. ولوكان الأمر وراثة لما كان هناك مشكلة .. فشجرة أسرتنا ـ وأمك منها ـ حلوة الثمرات » ..

ـ احم احم احم ها ا ا ا ه ...

مع وقع حذاء ثقيل على باب الحجرة ، وهمهمة رجل كأنه حصان ثم سعال مفتعل يقول صاحبه « أنا هنا » قطع عليه حبل أفكاره فى الداخل فرفع رأسه إلى السقف وأرهف سمعه .. لم يكن مبتئسا بل كان

يتدبر كل ماسمعه داخل نفسه فى لذة تشبه الحبور . حواشيها قلق على مصير.. مصيرعزيز مع اختلاف وجهات النظر .

وجعل يتدبر الموت .. لقد عرف عنه الكثير.. رآه مالايقل عن مائة مرة .. رآه أحمر قانيا .. ورآه هادئا كموت الذين يبتلعون المنوم .. غيرأنه شعر بأسى فى هذه المرة وخوف من الموت ..

وسأل نفسه بأسف وحسرة :

هل حقيقة يستطيع الإنسان أن يختارعاداته مادام الموقف لايرحم وقبل أن يصبح عبدا لها ؟! ـ كما قال أبى ـ ومصمص بشفتيه وفتش جيبه فوجد فيه سيجارة فأشعلها وأحس أنه يدخن بلذة تتناسب فى عمقها مع كثافة الأفكاروكأن وقع حذاء الجندى على الباب لايعنيه بتاتا.. تناساه .. ومالبث أن نسيه ..

وجعل يتذكر وجوه الموتى .. وقطب جبينه فقد خطرت له فكرة رآها طيبة وطبيعية وعليها مسحة من الجمال .. نعم .. هذه الوجوة التى ماتت أمامه .. نعم .. نعم .. لايكون الموت مؤسفا جدا إلا إذا كان الإنسان فيه سببا ثانويا .. ويكون بدرجة أقل مرة أخرى إذا توقفت الحياة من تلقاء نفسها .. طريق بدأ وانتهى .. أما أن يكون بيد الإنسان فذلك عمل كريه حقا ..

ومن ثنايا هذه الأفكار عاد صوت أمه يخرج من أعماقه :

« كنت تذبح الدجاج بالزجاج وتقف ترقبه .. كأنك لست أبنى »..

وبعد ذلك أخذ يطفىء السيجارة على أرضية الحجرة العارية

وسطع فى الجو الضيق رائحة التبغ والرطوبة . وخشخش قفل وأدير مفتاح وصر باب الغرفة وانفتح ثم نودى على المسافر فخرج وقد وضع كفه على جنبه كأنه يعانى ألما .

***

كانت نظرات الظفروالعجب بادية على وجه المحقق وهوينظر إلى المسافر . كان كلاهما فى الثلاثين من عمره وكل منهما يتمتع بذكاء خاص .. كان الهدوء يخيم على المسافر .. مما جعل نظرات المحقق فيها كثيرمن السخرية ..

ـ اسمك ؟!

فأجاب بهدوء :

ـ اسمى .. سعد .. عبد العال ..

فضحك المحقق من أنفه .. وسأله مرة أخرى لكن بصوت يميل إلى الغضب وبطء يؤكد نفس السؤال :

ـ أنا أقول لك : مااسمك ؟!

ـ سعد .. عبد .. الـ ..

فقاطعه مرة أخرى :

ـ سعد أو سعيد ؟!

ـ لا .. سعد ..

فنظر فى الصورة التى أمامه .. ثم نظر إلى الرجل .. وكانت الصورة صورته بلا شك .. مع فارق بسيط هو تعبير الوجه .. نعم ..

التعبير .. الذى يحكى قصة الحياة أوخوالج النفس بدون حرف واحد ..

وأخذ المحقق يدق المكتب بطرف القلم ويحملق فى الفضاء حتى وقع بصره ثانيا على الواقف أمامه .. فسأله كأنه يسخر منه :

ـ وصنعتك ياسيد سعد ؟!

ـ طبيب ..

ـ طبيب ؟!

ـ نعم ..

وعاد المسافر يقول فى نفسه : « ورأيت الموت مالا يقل عن مائة مرة أحمر قانيا وأبيض هادئا كالذين يحلمون » ..

فعاد المحقق مسترسلا فى الضحك يسأل :

ـ ولماذا جئت إلى مدينة طنطا » ؟

ـ مدعو إلى محاضرة فى جمعية إصلاح الأسرة .

فحملق فيه المحقق .. ثم أطرق .. إن اسم « سعيد عبد العال » قاطع الطريق غطى على كل شىء .. فكل الناس يعرفون أخباره ولاينسون اسمه . حتى أصبح اسم « سعد عبد العال » فى نظر الناس إذا ماسمعوه خطأ محققا . فلاينبغى أن يكون هناك غير« سعيد » .فقال المحقق بهدوء :

ـ وضح الأمر بنفسك يادكتور سعد ..

ـ إن سعيد شقيقى .. أقولها بخجل .. إنه توأم لى .. نحن اثنان متشابهان فى الملامح تماما مختلفان فى السلوك تماما .. فهو

يسلب « الحياة » على الطريق وأنا أحاول ردها فى المستشفيات ..ومن الممكن أن تتصل برئيس جمعية إصلاح الأسرة ليحضر إليك . فأنا . فأنا مغرم بالإصلاح الاجتماعى فضلا على أننى طبيب وربما كانت حياة شقيقى سببا فى سلوكى ولو أن أبى كان يقول لنا حول هذا كلاما كثيرا.

وأطرق وكأنه يسمع صوت أبيه « ألم يكن فى إمكانك أن تختارهواياتك وعاداتك قبل أن تكون عبدا لها ؟ أنا واثق أنك من صلبى وستعرف الدليل .. »

وأفاق الطبيب على صوت المحقق بعد أن دخل رجل بمعلومات جديدة :

ـ من الممكن أن تتفضل فتستريح إن شئت ومن الممكن أن تنصرف .. وإن كان أسفى على أننى لم أنه قصة « سعيد عبد العال » يعادل سرورى بلقاء الدكتور« سعد عبد العال » .. وسأستمع إلى محاضرتك غدا فى جمعية إصلاح الأسرة .

كان يسائل نفسه كلما دخلت عليه : « لماذا يبدو عليها التفكير هكذا ؟! » ولم يكن هو فى حقيقة أمره من الذين يملكون الجرأة للكشف عن أسرار الناس .. لم يكن فضوليا . غيرأنه لم يستطع أن يتناسى هذا السؤال منذ عينت الآنسة « أمال » كاتبة فى الحسابات تحت إشرافه فى المؤسسة .

ومنذ رآها فى أول يوم ازداد ايمانا بأن المهن قد لاتختارأصحابها فى كثير من الأحوال .. نعم .. فعودها الدقيق وكفها الصغيرة ومزاجها العاطفى المتقلب .. وعيناها اللتان تتعارك فيهما أفكار وذكريات أكبرمن عمرها ذى العشرين عاما ...وصوتها الشاكى حتى فى حالات السرور ـ كل هذا ينفى عنها بتاتا صفة كاتبة حسابات ويرشحها ... لماذا ؟!..

كان يفكر وهو غارق فى « المراجعة » عما تصلح له الآنسة آمال ... ظل يجمع ويطرح بذهن شارد ... وتناهى إليه عزف « بيانو » من أحد البيوت القريبة يختلط عبيره بضجيج المواصلات كما تختلط أرقام الحسابات بأفكاره عنها .. عندئذ وثب إلى ذهنه خاطرهو أنها لا تصح إلا أن تكون « عازفة » ..

وابتسم لأفكاره ونظر إلى مكتبها الخالى فى حجرته . ثم نظر فى

الساعة . إنها تكاد تبلغ التاسعة . ووجد نفسه يسأل نفسه من خلال عمليات « الضرب » وضجيج المواصلات وعبيرالعزف : « لماذا تأخرت اليوم ؟! »

وأحس بيد تقبض قلبه بلطف لكنه كان فى عنف لمسة المجروح . ومط شفته اشمئزازا من فكرة أنه سيتعلق بها . رأى ذلك محالا . فحديث الحب عنده فراغ أو لهو أوخرافة . وهوليس فى فراغ ولا من طبعه اللهو ولايؤمن بالخرافات ..

وعاد يراجع الحسبة أمامه فإذا بها مليئة بالخطأ . فابتسم .. ووضع قلمه وطلب فنجالا من القهوة ثم عاد ينظر إلى مكانها الخالى .

وفى هذه اللحظة سمع وقع حذاء عال مستعجل الخطا على بلاط الممر الطويل المؤدى إلى الحجرة .. ثم ثم مالبث أن رآها داخلة تحيى وتعتذر وتجلس وتخلع قفازها وتتنهد وترمى بإحدى خصلات شعرها الدانى إلى الوراء ـ كل هذا فى وقت واحد .

فى هذه الوهلة أحس بالهدوء والراحة . لم يكن شاعرا بقلق ولا تعب يرتفعان إلى مقدار ما أحس به من هدوء وراحة عندما دخلت . فجعل يسأل نفسه عن اختلال النسبة بين الضدين كأنه يعمل معادلة حسابية ثم مالبث أن انصرف عن أفكاره كأنما عد ذلك خسارة ... خسارة ألا يراقب هيأتها فى هذه اللحظات .

وكانت قد أخرجت من حقيبة يدها منديلا صغيرا وأخذت تمسح ماتحت عينيها .

لم يكن هناك دموع .. ولكن .. وجهها كان كسماء تنذر بالمطر . بادية القلق والرقة والانكسار . ولو أنه هو الآن فى الخامسة والثلاثين إلا أنه شعر نحوها بالأبوة . الحزن على زاويتى فمها كأنه بيت شعر يوقظ الحماسة . وجد نفسه على وشك أن يسألها سؤاله المألوف :

« لماذا تأخرت .. خيرا .. » فألفاه تافها لامغزى له وفى هذه اللحظة أخرجت هى ورقة ملفوفة ومنها .. سندوتش صغير الحجم .. ومن خلال ابتسامة مغتصبة ألقت إليه بكلمة «اتفضل » ثم قطمت منه.

كانت تأكل بطريقة من يريد أن يحفظ لنفسه الحياة فقط . وتعمل بطريقة من يريد أن يحرق نشاطه كليا . وتتكلم بطريقة من يريد ألا يقول إلا المطلوب . وكان على وجهها اليوم علامات سهر وأرق . يلفها سور من صمت متعمد .

وعاد هو فأكب على الأوراق . وكان صوت العزف يصل متناثرا من خلال الضجيج . خيل إليه أنه تحول إلى رشاش معطر يتناثر على وجهها الساهم من فوهة « بخاخة » .

لكنه على كل أحس بشىء يستيقظ فيه . أحس بالخوف من حبها ومن التجربة المرعبة ، تجربة أن تأخذه فتاة من زوجته وولديه . كلا .. أو جزءا .. وهو كرجل يؤمن بالأرقام ، يؤمن أيضا بأن أدنى درجات الخلل يوهى البناء كله كسقوط « الصفر » فى حسبة ما ..

وكانت هى تأكل .. قطعة وجرعة من كوب الشاى ، ورائحة عطر



ولكن .. وجهها كان كسماء تنذر بالمطر

وحشى ـ غير متناسب مع منظرها الوادع ـ تملأ جو الغرفة .

ثم مالبثت أن فرغت من طعامها . ورآها من بين أهدابه مكبة على العمل تحت عينيها هلالان من زرقة البنفسج .

فسمع نفسه يهتف فى نفسه : « إنها تحترق !! ترى لماذا ؟!»

***

ولم يكن هذا التغيير إلا ترجمة عن شعور يهدده لم يبلغ الذروة بعد . بدت بوادره ليلة أمس .. الليلة الماضية فقط ... حين فطن إلى نفسه وهو يوازن فى صمت ثقيل بين أنف وأنف . وفم وفم . ثم اللون والشعر والصوت .. لها هى .. ولزوجته !!

ثم تماسك فى مكانه . وقف عند نقطة معينة من الأفكاركمن يخاف أن يتدحرج . والتقط أكبر أبنائه من على الأرض ورفعه وصار يقبله بأعلى صوت حتى ملأ سمع نفسه بصوت قبلاته . وذهب إلى مكان ما من المسكن وأحضر الراديو ليبدد أفكارنفسه ..

كان ذلك أمس ... فى سواد الليلة الماضية ...

لكن الآنسة ظهرت له اليوم كحقيقة لاتقبل الجدل . كحركة الجنين غيرالمرغوب فيه فى بطن الأم . ليس هناك طريق ثالث بين الإجهاض والاكتمال . ومع انعدام الطريق الثالث فإن للطريقين مخاطرهما وأوجاعهما .

***

قام فخرج من الحجرة لا يدرى إلى أين ، بدا له الممر الطويل

العارى من « المشاية » المؤدى إلى السلم مثل برزخ ما بين الجنة والنار. فمشى ساهما لايأبه لسؤال أحد من الجمهور وكأن الضجيج الخارجى صدى لما في نفسه .

ونزل إلى الشارع ثم عاد . قطع نفس الطريق . عبر الممر ودلف إلى الحجرة . وعندما سمعت هى وقع أقدامه نهضت كمن وجد الحل . هنفت بصوتها الواهن :

ـ أستاذ كامل ... جئت فى الوقت المناسب ... طلبونى فى البيت لأمر طارىء وكان لابد أن تحضر قبل أن أنصرف ... تسمح ؟! »

فسأل باهتمام غير مألوف :

ـ ممكن أن أعرف مابك يا آنسة .

وفتح اهتمامه بابا كان مغلقا . فتحه على نفسه وعلى الآنسة . فلم يكد يكمل سؤاله حتى أجهشت بالبكاء .

أحس بالألم والخجل والحيرة فى وقت واحد . بل ... وبشعور مغشوش . شعور من سبب لها كل الآلام التى سكبت دموعها.

فقام وأمسك كتفها . ورجاها فى هدوء أن تجلس على كرسى وقدم لها قرصا من الأسبرين وجرعة من الماء .

ومالبثت أن تمالكت نفسها . ثم ابتسمت تغالب بقية دمعها .. أما هو فكان فى استكانة من غلب تماما على أمره .

ظلل صمت كانت عيناه فيه ترعى محاسن وجهها قطعته عليه بأن رفعت وجهها إليه وقالت معتذرة :.

ـ متأسفة .. أنا متأسفة لما حدث !!

ـ بالعكس . متأسف أنا .. أنا الذى ..

فقاطعته :

ـ هل تسمح لى بالخروج ؟ آه .. (وضحكت من بين أسنانها كفتاة غريبة عن التى كانت تبكى) عندنا ... حادث سعيد .

وعادت تضحك فى خفوت ووجهها نحو حجرها كما يغرد طائر نصف نائم . فسأل :

ـ من ؟

ـ زوجة أبى !!

ـ آ ا ا ه .. زوووجة أبيك ؟

فهزت رأسها مؤمنة وعادت ترمقه بكل عينيها .

ـ أنت بلا أم ؟!

ـ منذ طفولتى .

ـ ولك إخوة ؟!

ـ منها فقط !!

فابتسم السيد فى بطء كمن تفهم معضلة :

ـ وهى التى .. تلد ؟!

فأطرقت خجلا واستطرد هو :

ـ وبهذه المناسبة ... ما موقفها من فكرة ... آ .. زواجك ؟

فغالبها البكاء . فنهضت ومدت يدها مصافحة وهى تقول فى

تهالك مؤس :

ــ فى وقت آخر ... أرجوك ... سعيدة .

***

عندما دخل المساء أخذ يحس بوحشة الليل . ومع الوحشة واستطالة الوقت وانتظار اليوم التالى بدت له الآنسة آمال حقيقة لاتقبل الجدل .. كحركة الجنين غير المرغوب فيه . وفى هذه اللحظة كانت الساعة تدق التاسعة فى إحدى زوايا البيت فذكرته تلك الرنة المألوفة بأزمات سن الشباب الأول وكأنما عادت تقص عليه ــ بحركة البندول ــ ذكرى كبوات العاطفة . فشعر أنه يعيش فى الماضى لكن ــ مع وخزة حزن ــ خيل إليه أنه دون مستوى الصراع الذى بدا فى هذه الليلة مثل جبل يسد طريق الأفق .

كانت الساعة ترسل آخر دقاتها . وماكاد السكون يستتب حتى سمع صراخ طفله الصغير. خيل إليه أنه حاد .. إنه نوع غير الذى يسمعه منه كل ليلة . وكان صوت أمه يناغيه قليلا أو يلهيه ثم يتركه فى يأس . ويعود السيد إلى أفكاره فلايلبث أن يعود الطفل إلى صراخه .

جعل هذه الليلة يفسر صرخة الطفل بقلبه .. شعر أنها احتجاج ورفض وحنين ... ثم لحظات يأس ودمعة مقهورة . ثم عودة إلي أول الحلقة .

وبعد ساعة نفذ كل هذا إلى قلبه . شعر أن طفله محتاج إلى

معونة فقام ليسأل الأم .

ابتسمت والآسى على وجهها . لم ترد على سؤاله . كانت تربت ظهر الطفل علـه يهدأ . وكانت خلجات من النوم على أهدابه . لكن الأب رأى كف ابنه الصغيرة تتسلل نحو صدر أمه . والأم تحول بينها وبين ماتريد ...

فابتسم الأب . فقد كان ابنه أيضا في صراع ...امرأة تريد أن تفصله عنها... تريد له أن يفطم . فولاها ظهره وخرج .

وبات طول الليل يستمع إلى الأنين . كأن الحياة فى إحساس هذا الصغير ركزت فى جرعات اللبن ... كل الفواكه والطير واللحم .. والحب والحب .. وهو وهويقاتل لإقرار دستوره بدمعه وقلبه .

وعندما يغالب النوم الثلاثة يستيقظون على صرخة حنين هى فى واقع الأب صدى لحلم ليلته . وواقع الأم مر وحلو مثل واقع الطفل من مرارة « الصبار » على ثدى الأم تخالط حلاوة اللبن .

وهكذا بات الثلاثة ...

وعند الصباح كان ذاهبا إلى مكتبه وهويحاول أن يتمثل أزمة طفله ويعيشها . لكنه عندما دخل ... لم يجد الآنسة .. ولم تحضر اليوم .

وفى الليلة التانية عادت التجربة نفسها . تجربة الحنين والبكاء . وذهب الأب إلى مكتبه فى الصباح فلم يجد الآنسة . فخيل إليه أن القدر أعاده طفلا صغيرا ... كتب عليه الفطام ودهن ثدى أمه

« بالصبار » .

فجلس يحملق فى مكانها الخالى . ويتصور أن خلوه بالنسبة إليه أمثل وضع . فقد كان يمشى مع طفله فى طريق واحد . كل منهما مجبر على السلوان .

بعد خمسة أيام عادت الآنسة ..

دخلت فوجدت نظام الحجرة مغيرا . مكتب الأستاذ كامل مكان مكتبها غيرمكتبين آخرين جلس على أحدهما رجل مسن وعلى الثانى شاب نحيل وخلف كل منهما رفوف ودوسيهات .. دنيا .. تغيرت معالمها .

ولم يكن الأستاذ كامل حاضرا . كان فى الإدارة العامة .. وعندما دخلت الآنسة ضحك فى وجهها الرجل المسن وقال وهو يهرش بالقلم خلف أذنه ويبتسم من خلال طقم الأسنان :

ــ مكتبك تحت ياآنسة ...

ــ وأين الأستاذ كامل ؟

فرد نفس الموظف :

ــ الآن ... فى الإدارة العامة ... ومن هناك إلى البيت .

كانت الآنسة تستدير لتأخذ طريقها إلى مكانها الجديد لكن الموظف المسن استوقفها وهو يقدم لها يده بشىء وهو يبتسم :

ــ خذى هذه !!

ــ ما هذا ؟

فقال من خلال ضحكة :

ـ قطعة شيكولاتة .. قدمها لى الأستاذ كامل مما اشتراه لابنه المفطوم .. (هى هى) ليس لى أسنان لأمضغها .. خذيها أنت .

أخذتها الأنسة فى هدوء لم يخل من الحزن . وقفت قليلا فى وسط الحجرة ثم التقت عيناها بعينى الشاب ... كان ساهما قلقا يدخن ناسيا نفسه . تقدمت إليه ومدت يدها بقطعة الشيكولاتة قبل أن تخرج وهى تقول له بصوتها الوانى :

ـ أنت الذى تستطيع أن تأكلها . هل تحب أن تأخذها ؟!

فقال بدهشة وسعادة :

ـ نعم نعم نعم ...

سلا الطفل الرضيع ثم سلا الأب كذلك . أما الشاب النحيل فقد لوحظ عليه بعد أسبوع من أكله الشيكولاتة أن كشوف حساباته أضحت مليئة الآخطاء .

الشارع الخالى

نسيم الإسكندرية فى لطافته المعهودة .. رطوبة وركود ومخاوف . ولا على الكورنيش مصباح يتوهج ولا فى الأحياء كلها . ونظرة إلى المدينة من نافذة أو سطح أو مئذنة أو برج تدل على أنها « تختبىء » وأن الحرب فرضت عليها ـ غصبا ـ أن تلم أنوارها وأهلها وتحبس صوتها و« تختبىء » فى خيمة من الظلام ..

وفى الجو روائح غريبة لم يشمها أنفه لم تعط رائحة البحر ولا أعشابه حتى فرصة التطفل . بارود واحتراق .. وأخرى من الممكن أن تكون رائحة توتر .

وعجب فى نفسه كيف يشم للتوتر رائحة . كانت شائعة فى الجو فى هذه الفترة التى تفصل بين غارة وغارة ، وكان يمشى فى الشوارع على غير هدى والظلام حالك زاده حلكة أنه هو شخصيا يعتبر نفسه قد ضل الطريق ، فما كان محقا فى خروجه فى هذه الليلة لكنها قضية هامة كان من الضرورى أن يستشير فيها صديقه كاتب المحامى المشهور .

على كل فعليه أن يعود ، ولم يكن عنده فكرة عن صمت الأحياء الراقية القريبة من البحر فى مثل هذه الحالات . لقد استحالت إلى شىء أخرس تحرسه الأشجار والأسوار لكن فى الأحياء الوطنية التى يسكنها

فإن هناك ناسا يسألون عن ناس ، وأسماء تتردد بأصوات عالية فى أشد حالات الخطر .

كان إلى يمينه سور ممتد عليه نباتات مزهرة . لم تصل إليه رائحة الخضرة ولا الزهر. وجد نفسه مشغولا وهو يمشى بأقصى سرعته فى البحث عن باب فى هذا السور كأنما كان فى ذهنه ـ دون أن يعى ـ أنه سيدخل فى ساعة الخطر .

وظل ينظر إلى السور وهو يفكر« لماذا هو خائف ؟» لكنه فر من الجواب قائلا : « كل الناس يخافون والحيوانات والطيور » ومن خلال هذه الفكرة خطرت له فى لظلام صور الذين يحبهم فعلل خوفه بأنه من أجلهم .. صورة زوجته التى لم يمض على زواجه منها سوى سنتين ومنديلها الحريرى الشفاف تعصب به رأسها والفرق الأبيض فى شعرها الفاحم ... وابنه « نبيل » ... ما أعظم بسمته ..

أحس أن الظلام قلت كثافته عندما ذكر بسمة ابنه ثم عاد ثانيا إلى الحلوكة .. وأخذ الشارع فى الالتواء والانخفاض الملحوظ وسار جنب الحائط حتى يأمن العثرات فإذا به يفيق من أفكاره على صدمة : « آه » وتطاير من عينيه شرر كثير عاد بعده الظلام . كان يمشى بسرعة فلم يستطع إلا أن يجلس على الأرض .

ولم تزد على آهته حتى نحنحة إنسان . فأحس فى هذه اللحظة بإحساس الجرحى يتركون فى ميادين القتال بعد انسحاب الهزيمة . حاول أن يقوم فلم يستطع وتحسس وجهه فإذا به لزوجة دم . وبالقدرة التى

يستمدها الوحيد عادة من كياته فى مواجهة الخطر نهض واقفا وبدأ يتحسس كل ماحوله فقد كان فى ظل شجرة كثيفة الورق رمت على الأرض ظلمة فريدة . وفجأة تبين أنه يمسك بشىء على الحائط عرف أنه صندوق البريد . وأن الصدمة كانت منه .

لكنه حمد الله على أنه لم يذهب ضحية شظية كآلاف الناس الذين ماتوا . وارتدت إلى قلبه الطمأنينة عندما أحس أن جرحه سطحى . لكن الطريق بدا له طويلا .

وعاد إلى الخط الأول من تفكيره يسأل نفسه : « لماذا يخاف ؟! » ... ماذا لو كتب عليه أن يكون فى الميدان ؟! » ولم يجد جوابا . كل ما أحسه فى هذه الوهلات وأمثالها هو كره واشمئزاز من الحرب . ولجأ إلى تعليل بسط وهو أنه يكره الموت ككل الناس ويكره كذلك أن يرى وجوه الموتى .. حتى وجه أحب الناس إليه... أمه ... طالما نادوه بالصراخ أن يأتى فيلقى على وجهها نظرة .. فهرب !!

وعاوده وجه ابنه « ما أجمل بشاشة الحياة فيه .. نداء صامت كمنطق الربيع ، على كل حال بينى وبين بيتى ربع ساعة ما أطولها ! ».

ولاح له ميدان فسيح كان عليه أن يعبره . بدا كأنه ملىء بالماء وكأنه سيغرق فيه . أحس أنه معرض للخطر أكثرمن قبل فرفع ذراعيه فوق رأسه على شكل ظلة ثم مالبث أن سحبها وهو يبتسم .

ولم يدر لماذا رأى الأرض أكثر استنارة . رقعة الميدان تكاد تكون واضحة المعالم .. فى وسطه الجزيرة الكبيرة وباقة أعمدة النور المطفأة

.. ورفع رأسه إلى السماء فرأى نجوما تتوهج فى صمت وغمز وعدم مبالاة فكأنه رآها مسئولة عن ظلام الأرض . وأخذ ينقل خطواته بسرعة ويفكر فى حنق فى هذه الليلة . وعلى مقربة من الجزيرة بدا صندوق قمامة ضخم عليه غطاء من الظلام . وعلى مقربة منه كان شىء ممددا فى وضع غير منظم يدل على أنه تداعى فجأة .

سرت فى جسمه قشعريرة عندما تبين أن هناك قدمين مرفوعتين وساقين ممدودتين فى بنطلون أبيض ساعده على الرؤية .. ولأول مرة يرى منظرا كهذا .. لقد سمع الأقاصيص التى تشبه الأساطيرفى هذه الفترة عن غارات الإسكندرية لكن القدرأوقفه الليلة وجها لوجه أمام تجربة حية .. مع هـذا الرجل الميت . وفكر أن يحيد عنه لكنه قال فى نفسه: « ربما كان فيه بقية تحتاج إلى إغاثة » وذكرأنه يحمل ثقابا فأشعل عودا وأكب راكعا عند رأسه ويده ترتعش وهو يدرك خطر إشعال الثقاب لكن شيئا مجهولا دفعه نحو المغامرة . ربما كان طموحه إلى أن يذوق معنى الاندفاع أوالشجاعة . وعلى تراقص الشعلة رأى الدم والعين التى فارقتها الحياة وهى جامدة كقطعة من البرد ..

***

لم يحس بعد ذلك بشىء واضح . كان يمشى فقط . وأعاده إلى صوابه عودة الآمان إلى قلبه عندما بدا له الحى الوطنى الذى يسكنه بأبوابه المتقاربة والأصوات التى تنبعث من كل مكان . ورائحة سمك مطبوخ وبكاء طفل ... ومناغاة خيالية وراء كل نافذة مغلقة !

وأحس بشوق إلى زوجته كأنه عائد من حرب . شوقا ليس قلبيا فقط لكنه بكل الكيان . ويذكرليلة ولادتها لنبيل وهى تضغط بكفيها الوسائد والأيدى وكل شىء حولها حتى الهواء . وتصور وهو يدلف إلى الشارع المؤدى إلى نهاية الحى أن ابنه ناله مكروه . فقد كانت أمه تنزل به إلى حوش البيت وأحيانا ـ عندما تتأزم الأمور ـ تجرى به وقد غطته بقلبها إلى مخبأ فى أرض فضاء.

كان لايزال مستغرقا فى هذا الخاطر. وأنساه خوفه على الحى جزعه من رؤية الميت . وهناك سور واطىء متآكل فى عدة مواضع لمدرسة أهلية .. طويل ممدود .. يقع على يساره ، وعلى يمينه جزء من الفضاء الذى زحف إليه الحى ودكاكين مغلقة بأبواب من الصاج .

« أخشى أن تكون تركته نائما ونزلت هى كما يحدث من بعض الأمهات .. غيرمعقول !! »

كان يمشى فى وسط الشارع لأنه شديد الهدوء حتى فى النهار . لكنه مالبث أن رأى بركة ماء صغيرة لمعت فيها نجوم السماء نشأت هذه البركة من خلل فى أنابيب المياة فألجأه هذا إلى الصعود على الرصيف ومشى حذرا جنب السور وهو يكاد يكتم ضحكة من العقبات التى اعترضت سبيله هذه الليلة .

عاد فسأل نفسه عن حقيقة هذه العقبات .. « ماذا تكون بالنسبة لما يراه الغير؟! » ووثبت إلى خياله حوادث بعض الأفلام التى رآها التى صورت ماتعانيه الطاقة البشرية أحيانا لكنه لم يستغرق كثيرا فقد

سمع صوت بكاء ينبعث فى السكون .

جمد فى مكانه .. وأخذ ينظر فى كل اتجاه . كانت النجوم تلمع فى الماء المراق على الأرض .. وفى السماء أيضا . والسور على وشك أن ينتهى . وبعد نقطة انتهائه ساحة كبيرة لاتأخذ شكلا هندسيا معينا بها عدة نخيل للزينة على مقربة من ضريح . ووقف عند نهاية السور ... بدا المكان مهيبا بالنخيل المشعث والظلمة والماء ولمعان النجوم . وأحس أن صوت البكاء يمزق قلبه .. صوت طفل على وشك أن يختنق!

ووقف عند نهاية السور ونظر فى الساحة الممدودة وتذكر المنظر الذى رآه منذ مدة هناك فى الميدان .منظر الرجل الذى قتلته شظية .

أحس أن شيئا يناديه هناك عند الضريح . فقد كان عند الضريح إنسان حى . أما الشارع فقد حوى ميتا .. ميتا .

لم يستشعر شيئا من الخوف . تقدم يخترق الساحة المقفلة فى المكان المظلم . ميمما نحوالصوت حاسبا فى نفسه أنه ربما كان إلى جانب الطفل إنسان آخر .. ظاهرأومستخف .. رجل أو امرأة . لكنه ـ إن كان ـ فهوإنسان عاجز أن يفعل من أجله شيئا .

وارتفع بكاء المولود كأنه أحس بوقع خطوات من سينقذه . وعجب الرجل فى نفسه عندما لامست كتفه ساق إحدى النخيل من ظلمة الحرب فى هذه الليلة .. فلا الروح التى ذهبت ولا الروح التى أقبلت .. لا الميت ولا المولود .. وجد فى هذه الليلة حيث يجب أن يكون .

وتنهد .. فكاد يطفىء عود الثقاب وهو يشعله ، ورمى نورا على

المكان الذى لم يكن غريبا عليه فقد كان يعرف معالمه فى النهار لقربه من الحى الذى يسكنه ، وتراقصت الشعلة الحمراء فرأى على ضوئها الباب الصامت الواطىء كأنه لم يفتح منذ أعوام .. والدرجات الحجرية الأثرية الموصلة إليه ، وعند الباب المقفل تماما وضع الطفل فى لفائف داكنة .. ولم ير شيئا أبيض ، إلا شبحا ضئيلا لشىء صغير يقترب منه لم يسمع له وقع خطوات بل تسلل كأنه مخلوق بلا أرجل .

كان عليه أن يخاف لكنه فى هذه المرة وجد نفسه مصرا على الاقدام . وكأنما هتف فى داخله صوت آخر يعيره بالفرار من كل شىء. من الميت والحى . فلم يتزحزح قيد خطوة عن إرادته .

وبسرعة ولهفة أشعل عودا آخر مع علمه بخطر ذلك فى ليالى الحرب فرأى على مقربة منه كلبا لم تبد المسالمة فى عينيه . بدا على مقربة من الطفل مثل روح شريرة تستفتح أيام عمره . وكشف الكلب عن أنيابه وزمجر وتوقف الرجل يفكر فقد كان خصمه مستعدا للهجوم . وخطر على باله أنه ربما آذى الطفل فمن المؤكد أنه ليس موكلا بحراسته .

وفكر الرجل .. ليس من مصلحته أن يبدأ الهجوم فليس معه سلاح يدافع به هذا الحيوان . فوقف جامدا فى مكانه مؤملا أن يتغير الموقف فكثيرا مايحدث أن تفر الكلاب الضالة إذا ماثبت أمامها إنسان حتى ولو كان بلا سلاح . لكن الحيوان ظل يزمجر ..

وأخذ الطفل يبكى باختناق يكاد يقطع أنفاسه فصمم الرجل على

أن يتقدم إليه ثم يرى ماذا سيفعل الكلب لكن الحيوان سبقه وأخذ يزمجر ثم هجم عليه هجوما أكيدا ذكره ـ وقد أخذ فى الدفاع عن نفسه ـ بما سمعه عن الذين يموتون وهم يقاتلون قوى . وأنهم يموتون سعداء .

وتمثلت له الحرب بكل أوصافها وأعراضها عندما وقف الحيوان على قدميه الخلفيتين وتقدم نحوه وتراجع هو فإذا به يتبعه ولجح فى خلع سترته الصوفية . وألقاها على رأس الكلب وأمسك بأطرافها على رأسه فى حركة سريعة مستميتة . وعندئذ تحول نباحها إلى أنين ولم يعد بكاء الطفل يصل إلى سمعه فقد كان مشغولابالقتال من أجله ، ولم تكن هناك حركات مدروسة من أحد الطرفين فقد كانت حقيقة الموقف أن حيوانا يقابل آخر كل منهما يريد أن يفوز بحياته فى هذه اللحظات بالذات كما يفعلون فى ميادين القتال . واستطاع الرجل أخيرا وبعد عناء أن يجعل عدوه تحته . كان ثقيل الوزن وبما أنه كان آمنا من أنيابه محكما الرباط حول رقبته فقد أحس أن قواه قد بدأت تنهار وأخذ عواؤه يخفت وهو يعانى هبوط الاختناق . فحمله إلى أعلى ثم أخذ يضرب به الأرض حتى خمدت أنفاسه . ولما خمدت أنفاس عدوه أحس هو أنه استرد حياة نفسه وعند ذلك ارتفع صوت الوليد بالبكاء كأنه يذكره بوجوده . جلس والعرق يتصبب منه . ولم يشعر بالخدوش التى أصابته من أرجل عدوه بل كان فى تلك الوهلة يشعر بها عادة كل حى نجا من المخاطر .

كان يلهث . وأحس بظمأ شديد . ورفع رأسه إلى السماء فإذا

النجوم تلمع وتتغامز فى صمت لايبالى وتلقى بنورهزيل على المدينة المختبئة .

وقبل أن يسترد نظرته لمح شعاعا كشافا يتحسس طريقه فى الأفق تحسس الشك . فى تلصص وتردد . فأفاق تماما . عرف أن خطرا على وشك الوقوع . فجرى نحوالطفل فى اللفائف وحمله ومشى . وقطع الساحة المقفلة حتى وصل إلى الشارع . كان الطفل يبكى والعرق يتصبب من الرجل وأثار جراح خلفها الصراع بدأت تدل بنفسها على مكانها من جسمه لكنه على كل حال كان يحس بنشوة من قاتل ذات مرة ـ ولو بدون قصد ـ فى سبيل روح يجب أن تعيش .

***

كانت زوجته تطل من الشباك فى الظلام بعد أن استبطأت عودته. كان القلق ينهش قلبها. وبعد ن أخذ اليأس يناوشها سمعت وقع خطواته على السلم . فتحت له الباب فدخل وارتمى على السرير . ولم يجب على سؤال منها . فقد شعر أنه سيبكى إذا تكلم .

وجرت نحو المطبخ وعادت بكوب من الشاى وجلس يشرب وهو زائغ النظرات . ورأت الجرح فى جبينه والجهد على وجهه كأنه غيرالذى خرج من عندها من قبل المساء .

دقت على صدرها وسألته فى صوت عصبى :

ـ ماذا حصل لك ؟

فهمس وهو يشرب :



لا الميت ولا المولود وجد فى هذه
الليلة حيث يجب أن يكون ..

ـ لا شيء .. كنت .. فى ..

ـ فى .. فى .. أين كنت ؟..

همس :

ـ فى الحرب !!

ردت بذهول :

ـ فى الحرب ؟ .. فى الحرب ؟

وضع الكوب الفارغ على منضدة قريبة واسترسل يحكى ..

***

قالت الزوجة وقد لون الأسف صوتها :

ـ كل هذا فى ليلة ؟! ياسلام .. لكن .. زاد حبى فيك ألف مرة لإنقاذك للطفل .. سيحوله مركز الشرطة لأحد الملاجىء !! .. لاحول ولا قوة إلا بالله .. لكن فى أيام الحرب هذه رأينا كل شىء يفعل فى الشوارع .

وصمتت ثم رفعت صوتها كمن تذكر شيئا :

ـ نبيل .. قال « بابا » ثلاث مرات وأنت فى الخارج .

ـ آه .. ثلاث مرات فقط .. طبعا هولا يعلم أنى قلت « ابنى » ألف مرة فى هذه الليلة ..

الوجه الطيب

« ما أعظم الفرق بين هذين الولدين !! إنهما شقيقان لكن الفرق بينهما كبير .. ».

وكثيرا ما كان أبوهما يطرق مفكرا فى هذه المعانى . إنه يحب « أحمد » أما « فتحى » فذلك ولد كريه .

كثيرا ما أطرق الأب مفكرا فى هذه المعانى متسائلا عن السبب . إنه يحب « أحمد » صاحب الوجه الطيب .. ياسلام !! إن بشرته البيضاء الصفراء وعيونه السوداء وهدوءه المفكر ـ ليذكره بوجوه العشاق تحت ضوء القمر . فقط .. لو يرتفع مستواه فى المدرسة قليلا . دفعة إلى الأمام لأحمد تجعله فى نظر أبيه ولدا مثاليا .

إذا جلس فى أحد أركان البيت لاتكاد تشعر به . بل ربما لا يكون من المبالغة أن يضفى هدوؤه السكينة على كل ضجيج .

أما فتحى فهو مثل الزوبعة .. ليس فى نحول أحمد ولا ميوله للأحلام . وجه مكتمل مورد وفى عينيه العسليتين يقظة الصياد . يصخب دائما حتى فى تفكيره يقتل السكون حتى فى الصحراء .

وكان الأب يفكر فى ذلك ويحاول ألا يسمح لقلبه بكراهية أحد .

غير أن الأم دخلت إليه فى هذه اللحظة شاكية منه .. من فتحى .. إنه لا يكف عن طلب النقود ويذهب كثيرا إلى السينما ..

وتلون صوت الأم بالبكاء وهى تستطرد :

ـ ويهدد بسرقة نقود من البيت إذا لم نجب مطالبه .

ثم تهالكت على كرسى أمام الأب . ولم يرد الأب عليها . كان يتأمل علامات الأسى والضيق على وجهها الأبيض الأصفر الذى كأنما انسكبت عليه أشعة القمر. وأحس نحوها بحب شديد وكذلك بنسمة حب رقيقة نحو ابنه الثانى ... أحمد .. ذلك الذى لا يطلب شيئا ولا يكلفهم بشىء . ولايرفع صوته بالضجيج ولا التهديد .

ولم يتكلم الأب . حمل رأسه بين كفيه وأخذ يفكر . وأحس أن نسمة الحب حركت قلبه . إن وجه الشبه بين أحمد وأمه كبير فهل خدم هذا التشابه قضية الحب في قلب الأب بالنسبة لابنه أحمد . أو لعل التناقض بين تصرفات الأخوين هو سبب هذا الإحساس .

ورفع الأب صوته فجأة مناديا على فتحى . فجاء من آخرالمسكن وقد انسدلت خصلة من شعره على جبينه فى إهمال وانحسرت شفته السفلى عن سنة مكسورة ، وقبل أن يكلمه أبوه رأى فى ملامحه شيئا يعرفه من قديم .. ملامح صورة شخصية لا يزال يحتفظ بها كان قد التقطها بمناسبة نجاحه وهو فى مثل هذه السن . وأحس الأب بحنين مبهم وكاد ينسى صورة الثانى الذى يطابق منظره منظر وجه أمه الجالسة أمامه وقد رفعت عينيها فى ابنها بغيظ شديد .

وخيل إلى فتحى أن والده قد نسيه فى وقفته فقال برفق كأنه ينبه نائما :

ـ نعم يا بابا .

فأجاب الأب :

ـ صحيح إنك تهدد بسرقة نقود من البيت .. أنت تعرف أنها جريمة .

ـ وهل سرقت ؟

ـ لكن التفكير فى الجريمة ربما يؤدى إلى الجريمة .

ـ الذى قلته لأمى بالحرف هو أن الذى يطلب أحسن من الذى يسرق .

ـ إيه .. آ .. اى .. طيب .. امش من قدامى .

وأشار الأب بطرف كفه فانصرف الغلام . وقالت له زوجته عاتبة : هل هذا كل ماهناك ؟! » ولم يرد الأب كان مطرقا يفكر . فقد كان هو هكذا .. يطلب مايريد بصخب شديد ، ويفعل كل شىء فى النور حتى علاقات الحب . ومن خلال أهدابه نظر إلى زوجته ووجهها الذى كأنما انسكب عليه ضوء القمر وتذكر القيل والقال والإهانات والإشاعات التى لقيتها قصة غرامه بها قبل الزواج وذلك أنه كان مثل فتحى .. هكذا .. لاينشىء لنفسه طريقا تحت الأرض بل كل طرقه مكشوفة .

وقامت الأم فى يأس . وتابعها الأب بنظراته وهى تتأود بعود كأنه لم ينجب أطفالا . ثم غاب عنها بالتفكير .

« لكن لماذا يحب أحمد ؟! » إنه ـ هو الأب ـ لوعاد غلاما مرة أخرى لتمنى أن يكون مثله . لايطلب ولايهدد بالسرقة . يرضى بالقليل



ليس من المبالغة أن نقول أن صخبة
يقتل السكون فى الصحراء

وكأنما مسراته وأحزانه تنبع من داخله وحده .. ويعيش بينهم كالغريب . مستح دائما . أما أخوه فكل سنة يزيدها عمره تمنحه جرأة على كل أفراد مجتمعه وهو يخشى عليه باطراد الأيام أن يكون وقحا أو كثير الخصوم » . وتنهد الأب وأفاق ، وفجأة ألفى نفسه ينادي على « أحمد » لكن صوت زوجته أتاه من الداخل وانيا عاتبا يذكره بأنه استأذن وخرج ليقضى الليلة مع أولاد خالته فى المنيل وأنه ربما تأخر عندهم وهذا لايضر فالمشوار قريب .

***

كانت الأنوارمطفأة فى السينما حينما دخل الزوج ومعه زوجته . بعسر شديد وصلا إلى المقعدين الخاليين المتجاورين فى هذا السينما الصيفى لأن الليلة أخر الأسبوع .

وبعد أن مضت تلك الفترة التى تنقضى عادة فى تطلع الجالس حوله كأنما ليحدد مكانه من الشاشة والناس بدأ الزوجان فى الاستقرار وتتبع الحوادث . وكان الفيلم يحمل مأساة حب ربما بكى لها القساة لا العاطفيون لذلك فإن بعض المشاهد كانت مدعاة لمجرد الترفيه حتى ارتفعت بالضحك أصوات النظارة فى أرجاء المكان كله .

وبعد اختفاء عاصفة الضحك حول كل مضحك فى كل مرة كانت هناك ضحكة متخلفة ترفرف وحدها فى جو المكان كأن صاحبها دفع بها متأخرا فبقيت وحدها بعد زوال الضحكات .

ولأمر ما شغلت هذه الضحكة الصفوف القريبة من صاحبها

فأخذوا يبحثون عن مصدرها . وأحس الأب والأم أن بهما شوقا شديدا لاكتشاف مصدرها لكنهما مالبثا أن نسيا الموضوع فى غمارحوادث الرواية .

وعندما أضيئت الأنوار رأى الأبوان ابنهما « أحمد » ينهض بقامته النحيلة خارجا من بين الصفوف لأنه اكتفى بهذه الرواية التى لم يكن رآها من قبل وكان يبدو عليه وهو خارج هدوء من يغادر باب المدرسة .

وتقارب رأسا الزوجين وأخذا يهمسان :

ـ كل هذا ولا تحسين بابنك ؟!

ـ لو لم يكن الامتحان قريبا ؟!

ـ لكن .. من أين أتى بالنقود ؟!

ـ يا ترى هل هذه المرة الأولى ؟!

ـ بدأت أغير نظرتى نحو الوجوه التى تبدو عليها الطيبة !

عندئذ لكـزته الزوجة بذراعـها لكزة ربما كانت شـديدة وقالت هامسة :

ـ لا .. حاسب !

وأطفئت الأنوار ... وبدأت قصة جديدة !

***

وكان المسكن هادئا تماما عند عودة الزوجين إلى البيت . والشهر شهرمايو والطلبة على أبواب الامتحانات ولعل هذا أهم سبب جعل

الأبوين لايصحبان أحدا معهما إلى السهرة .

لكن حجرة الأخوين بدت مشعلة النور. من خلال الشراع البللورية كان النور يتألق . وفتح الأب الباب برفق فلم يتحرك أحد من مكانه . لأن « فتحى » كان مستغرقا فى النوم فى فراشه وقد غطى وجهه بغطاء خفيف ليحجز بين بصره والنور لينام ، أما « أحمد » فقد كان جالسا إلى المكتب واضعا رأسه على كتاب مفتوح وقد غرق فى النوم .

وتبادل الأبوان نظرة قالا فيها كل شىء عن الغموض الردىء والوضوح الطيب .. عن النور والظلام .

ووقفت الأم وسط الحجرة واتجه الأب إلى صوان الملابس الخاص بالأخوين وفتش جيب كل منهما . لم يجد فى جيب فتحى إلاقرشا ونصف قرش وبقايا من الفول السودانى المقشور وأقراص النعناع .

أما جيب « أحمد » الخفى فى بنطلونه .. فقد وجد فيه ورقة « سلوفان » مربعة صغيرة طوى بعضها على بعض وفى أعماقها خمسون قرشا . ورقة واحدة .. جديدة فريدة أول طبعة من عملة الجمهورية ..

وأخذها الأب وخرج . وترك الأم توقظ النائم على المكتب وتعيد نظام الحجرة إلى ماكان عليه .. ثم هجعوا حتى الصباح !

***

وفى ساعة مبكرة من الصباح ارتفع صوت خلاف وشجار فى حجرة الآخوين فعلم الأب أن ساعة « الصفر » قد حانت وعند ذلك دخل

إليهما فى حجرتهما .

كان الاحتجاج الشديد واضحا على وجه فتحى أما أحمد فقد كانت ملامح المظلوم تكسو وجهه الطيب . وحاول أن يستر دموعه ويطرق إلى الأرض فى الوقت الذى كان أخوه يدق فيه الأرض بقدميه ويلوح بيديه فى الهواء صاخبا يؤكد بين حين وحين أنه ليس لصا .. وأنه لم يسرق شيئا .وتدخل الأب والأم معا وسألا فتحى عن حقيقة التهمة فقال وقد رفع ذقنه كأنه يبتهل :

ـ ليتنى أعرفها .. إنه يتهمنى باللصوصية على ريق النوم !

واتجه الأب نحو ابنه .. نحو الوجه الطيب الذى يشبه وجه العاشق تحت ضوء القمر . وسأله في رفق شديد :

ـ ما الذى أخذه منك أخوك ؟!

فرد مسالما لينهى الموقف :

ـ لاتتعب نفسك يا بابا .. لأنه شىء بسيط .

وسكت طويلا وصمم على ألا يرد لكن الأب سأله :

ـ نقود مثلا !؟

عندئذ رفع الغلام .. أحمد .. رأسه نحو أبيه وفى عينيه أسى شديد . أسى ومرارة من لايود بزج أحد من الناس فى موقف حرج . وقال وهو يبلغ ريقه :

ـ ياريت يابابا .. لقد سرق كتابين من كتبى كانا هنا ليلة أمس ..

هتف الأب مستغربا وبسرعة من ينقض على صيد ليقتنصه :

ـ كتابين .. وكم ثمنهما .. المهم أن أعرف ثمنهما يا أحمد .

فرد بهدوء شديد :

ـ خمسون قرشايا بابا .. خمسون قرشا .

ثم انخرط فى البكاء فى الوقت الذى أخذ أخوه يشد فيه شعر رأسه فى صمت وغيظ . وأمره أبوه بالخروج ، وعندما خرج سأل الأب أحمد :

ـ والخمسون قرشا ياحبيبى .. مانوعها ؟ جمهورية جديدة ؟.. أول عملة صدرت فى الجمهورية .. تمام يا أحمد ؟

وضغط على كتفه ضغطة شديدة فكف عن البكاء وبدا على عينيه السوداوين اضطراب غامض . لكن الأب لم يمهله وصرخ فيه :

ـ أين كنت ليلة أمس ؟

فلم يرد .

ـ فى السينما ؟ لقد رأيتك .

فأومأ بالإيجاب .

فأمسك الأب بكتفه الأخرى بيده الأخرى وقال مهددا :

ـ بقى أن أعرف مصدر النقود .. هل سرقت أمك ؟

ـ لا..

ـ تلميذا فى المدرسة ؟

ـ لا .. لن أعود إليها يا بابا .. لن أعود !! بشرفى لن أعود .

***

عندما كان يكثر الزحام عند تاجر البقالة المسن الوحيد فى الدكان كان أحمد يأخذ المشتريات ثم يطالبه بالباقى وغالبا ما يكون بضعة قروش . وإذا نظر إليه الرجل بتشكك رأى وجهه الطيب ودمعة بانتظارأن تسيل من أى تهمة ..

واستحلى التجربة بعد نجاحها ثم تحولت التجربة إلى مغامرة ثم إلى عادة ..

وهكذا اعترف الغلام .. كان مطرقا وأمه مطرقة إلى جواره وعلى ملامحها طيبة وأسى مشترك ولم يكن الأب مهموما لأن غلاما فى هذه السن ارتكب خطأ من الممكن أن يعالج . لكن مركز همومه كان فى التفكير : « كيف تستطيع الوجوه التى تغلفها الطيبة أن تخفى وراءها أسرارا ليست طيبة ؟! ».

وعندما وجه هذا السؤال إلى زوجته ـ مداعبا ـ رأى دمعتين فى عينيها السوداوين قبل أن تنصرف .

جاء الربيع

لم تكن الشمس قد أشرقت على الريف فى ذلك اليوم . كان الوقت باكرا والشهر (أبريل) ونداوة النسيم تعبر من خلال النوافذ المقفلة عطرا بكرا صنعته يد الله .

ولم يكن فى الحجرة الكبيرة أحد سواه .. والباب مقفل عليه من الخارج وميعاد الفطور لم يحن بعد . لكنه كان فى حاجة قصوى إلى أن يتحرك . فقد أحس أن هذا الفراش الذى لزمه شهرا هنا ، ومنذ خمسة شهور فى المدينة . أحس أنه منجد بالشوك . وأن هذه الحجرة ذات الطراز الريفى العريق ضيقة .. جدا .. مع أنها ذات جدران مرتفعة ومساحة لاتقل عن ثلاثين مترا ..

وجلس فى فراشه وحمل ذقنه على كفيه ثم أخذ يفكر.. إنه كان حزينا قبل أن يأتى إلى الريف . كان يائسا من دنياه .. يرقب صباح كل يوم من نافذته وهو جالس على كرسيه ذى العجلات فلا يرى ابتسامة البشر على وجه أحد ويخيل إليه أن الناس الذين يتسابقون أمام عينيه إلى أماكن الرزق لا يفهمون من حقيقة الدنيا شيئا . أما المساء فقد كان ينزل على المدينة فى نظره كما ينزل الكابوس .. بليل لا نور فيه ولانوم ولاحلم سعيد .

لكنه فى هذا الصباح يحس أن شيئا فى داخله يبتسم وإن كانت

ابتسامته لاتخلو من ذكريات غيرحلوة . وهاهى ذى الخادمة الكبيرة التى تقوم على شئونه لم تعد حتى الساعة من عند بنتها التى وضعت غلاما كان أعز بشرى تلقتها طول عمرها لأنها لم تنجب إلا بنات . وهى لذلك تبدو أنها مشغولة وأنها تحمل طفل بنتها فى اللفائف وتتفرس ملامحه ثم تكبره عشرين مرة على الأقل بعين خيالها المشتاق لترى على شفته شاربا عظيم الشهامة . وتقبله .. وتضحك .

كانت هذه أفكاره وهو جالس فى الفراش . ورفع ذقنه من على كفيه وقلب بصره فى المكان وأخذ يعد النوافذ والكراسى بطريقة لاتعنى شيئا ، ثم تذكر وحدته وأخذ يفحص تفاصيلها .. فنظر إلى السرير المطوى فى الركن البعيد من الحجرة وتذكر الأيام الى كان فيها منصوبا .. منذ عهد غير بعيد .. منذ سنوات خمس .. كانت زوجته ترقد هناك ويأتيه حديثها من بعيد ..

ثم .. ماتت ، ودفنت فى القاهرة وكان هو يحترف تجارة الأقمشة فاستطاع أيام الحرب الماضية أن يبنى أشياء كثيرة وكانت هذه المزرعة الصغيرة من الأشياء التى اقتناها ..

ثم سكتت أفكاره .. قطعها عليه وقع خطوات على السلم ظنها خطوات خادمته الكبيرة . إنها زوجة أحد الفلاحين كانت تطارد دجاجة فرت من حظيرتها وأخطأت طريقها إلى السلم . وأخذ ينصت إلى المعركة حتى اختفت آخر معالمها . ثم عاد إلى ماكان فيه يقلب بصره فى الحجرة الواسعة ويحصى الأشياء حوله بطريقة لاتعنى شيئا . حتى

وقع بصره على السرير المطوى فتذكر زوجته وأولاده .

تذكر ابنه الأكبر الذى يشغل الآن وظيفة فى إحدى المحافظات والذى ظل يغريه طوال سنوات دراسته بأن يكون بديله فى التجارة لكنه قال « إننى ياأبى أفعل ما أصلح له ، ولاأفعل ما تحبه أنت ولا مايحبه الناس » .

وابنه الأوسط الذى يشتغل مهندسا بحريا فى إحدى المراكب التجارية يقطع الدنيا طولا وعرضا ويحمل إليه كلما عاد هدية طريفة أوحادثة عجيبة وقعت له أو لأحد الناس .

ثم .. ابنه الأصغر الطالب بكلية الشرطة .. البعيد القريب والذى لن يكون إلى جواره حتى بعد أن يتم دراسته لأنه سيكون فى خدمة الأمن فى إقليم ما فى أرض بلده ..

وعادت خطوات أخرى وضجة تسمع على السلم .و الشمس لم تشرق بعد . ونداوة النسيم تملأ أرجاء المكان عطرا بكرا كأنما رشته (بخاخة) . ثم تبين له أن دجاجة أخرى تجرى على السلم وأن أحدا يطاردها . ونقلته أصوات المعركة الناشبة بين المرأة والدجاجة إلى جو من الأمانى والأحلام فحسد كل شىء يمشى على رجلين حتى ولو كان دجاجة .. مصيرها هكذا .. تحبس فى حظيرة حتى يدركها السكين .. نعم .. لأنه مشلول منذ ستة شهور .. إحدى ساقيه لاتقوى على حمله وهو بطبيعة إحساسه مثقل باليأس . يحس بالخلاء والوحشة منذ وقع له هذا الحادث . ولم يصدق لحظة واحدة ماأكدته الوقائع وأقوال الأطباء

من أن المرضى بمثل مرضه يبرءون . وكان يضيق بالطبيب حين يقـول له « ساعد نفسك » حتى صرخ فى وجهه ذات ليلة قائلا له : « إذن فما مهمة أطواق النجاة ؟ »

ونظر إلى الكرسى ذي العجلات الواقف إلى جوار الفراش نظرة صديق لصديق .. أحس فى هذه اللحظة أنه أنفع شىء فى الدنيا فهل يستطيع أحد أبنائه الآن أن يحـمله إلى هذا الركن القـصى من حجـرة النوم ؟

وتنهد .. وجاءه عقب تنهده صوت عصافير تشقشق فشعرعلى الرغم من أى شىء كأن برعما أخضر يتفتح فى صدره فتبسم .

ورأى أول شعاع من أشعة شمس اليوم يدخل من خلال النوافذ والخادمة الكبيرة لم تعد بعد . وكان محتاجا إليها . ومن الغريب أنه لم يشعر بحنق ولا غضب بل حنا عليها . كان يتصورها جالسة فى القاعة الصغيرة على الفراش الأرضى بجوار بنتها وهى تقبل ابنها الرضيع فهل خطر على بال هذه الخادمة أن طفلا كبيرا جدا ينتظرها على بعد ثلاثة كيلو مترات ؟ و لم يتألم ولم يشعر بحنق بل نظر إلى الكرسى ذى العجلات وتقلقل فى مكانه معتمدا على كوعه ومدليا رجله السليمة محاولا أن ينزل إلى الكرسى وماكاد يفعل حتى فوجئ بإحدى عجلاته تسقط على الأرض .

فتحامل فى هدوء راجعا إلى الفراش . وجلس وأخذ ينظر إلى أسفل إلى حيث يربض الكرسى ، وحمد الله على أنه لم يستقر عليه

بكل ثقله إذن لأصابه مكروه .

لكنه عاد من جديد يستمع إلى يقظة الدنيا حوله .. كان هناك أصوات تغنى وسط الحقول يحمل الصباح صداها طربا عذبا كأنما غسله الندى . وناس يصيحون .. ينادى بعضهم على بعض كى يسرعوا إلى العمل . وطيور تغنى .. وحيوانات تتناغى .

وسحرته الأصوات . وأحس بقلق يسرى فى أعضائه يشبه إلى حد ماقلق الساقين حين تعزف الموسيقى . فدلى رجليه من الفراش ووضعهما على الأرض بشجاعة لم تسبق له من قبل على الرغم من إغراء الطبيب. وحانت منه التفاتة إلى الكرسى الذى سقطت إحدى عجلاته فرأى نفسه أقوى منه . وأحست إحدى قدميه الأرض ولم تحس بها القدم الأخرى لكنه تحامل على الاثنين معا ودارمع الفراش ، وفرض بينه وبين نفسه أنه جريح وحيد حتمت عليه الظروف أن يزحف حتى يصل إلى أقرب إنسان .

وجد نفسه جنب النافذة فظل واقفا وعالجها حتى انفتحت وفجأة بدت له الحقول والمزارع والأفق فى بهاء لم تعهده عيناه . وتبسم . واستنشق هواء كأنه لم يذقه من قبل مثلما يشرب الظمآن من يد يحب صاحبها ونسى نفسه فى وقفته لأنه أخذ يتأمل كل شىء أمامه .

كان هناك شجرة من اللبخ تقوم على الطريق العام كان يعرفها وهو صغير وكم صاد العصافير من بين فروعها والسمك من الترعة القريبة منها وكان يشعر أن رابطة ماتربط بينهما . ومنذ خمس سنين جاء



بدت الحقول والمزارع والأفق فى بهاء لم تعهده عيناه

الربيع واخضرت كل الأشجار على الطريق وفى الحدائق وحول الدور وفى المزارع . لكن هذه الشجرة لم تخضركلها . كان نصفها أخضر ونصفها يابسا . وجاء أحد الفلاحين فى ذلك الحين ووقف أمامه وحياه ثم وضع فأسه على الأرض واتكأ بيده على يد الفأس وسأله : لماذا لاتقطع هذه الشجرة؟ فأجابه صاحب الأرض : ولماذا نقطعها ؟ دعها .. فإننى أحبها.. فابتسم الفلاح وحمل الفأس ومشى ودعا للشجرة أن تعود إليها الخضرة . وهاهو ذا اليوم ينظر نحوها .. كل الأشجار قد اخضرت .. وقوة الإنبات فى الأرض ملأت القرية بالحياة .. وشجرة المشمش فى الحديقة القريبة تكسوها أزهار بيضاء مثل أجنحة الفراش .. نعم .. حركة بعث قد لمست كل حى ..

وتذكر فى وقفته ناسا كثيرين .. ابنه الكبير الذى تلقى منه رسالة تعبر عن شوقه وتعد بأنه سيكون عنده قريبا ..

وابنه الأوسط .. وابتسم ومصمص بشفتيه .. إنه أحب أولاده إليه .. آه لوكان يراه .. ورأى عصفورا ينقر عصفورا فأحس هو كأنه يقبل ابنه البعيد . إنه الآن فى البحر . وربما كان على أرض أحد الموانى يفتش عن شىء طريف يحمله هدية لأبيه .

وعادت عيناه تفتشان عن شجرة اللبخ . ياإلهى .. أليست هى هى القائمة عند هذا المرتفع . إن الساقية والترعة ومفترق الطرق وشجرة اللبخ أشياء ومعالم لايمكن أن ينساها . لكن .. لماذا هى خضراء كلها .. كيف عادت إليها الحياة بأكملها ؟

وفرك عينيه وعاد يحملق . إنه ليس مخدوعا .. إنها حقيقة .

وشعر بسرور كأنما عاد إليه صديق كان مفقودا فى معركة . ورأى الفلاح الذى أنذر يوما بقطع هذه الشجرة يعبر على الطريق من بعيد يمشى بلا فأس وهو يترنم بأغنية .

وسأل نفسه : هل من الممكن أن تفعل الحياة ببعض الناس ماتفعله ببعض الأشجار ؟ هل من الممكن أن يكون لى نفس المصيرالطيب الذى لقيته هذه الشجرة؟ فأتته الإجابة متمثلة فى صوت الطبيب الذى طالما همس له : « ممكن .. لكن يجب عليك أن تساعد نفسك » ومالبث سمعه أن امتلأ بصوت يهتف بتحية الصباح وكان صوت الخادمة الكبيرة . لم يشعر بها حين دخلت عليه لأنه كان غارقا من تأملاته وطلب منها كرسيا وجلس إلى النافذة ولم يدر لماذا كان يحس أنه ولد من جديد مع الطفل .. ابن بنتها ، ومع الطبيعة .. ومع الخضرة البهية التى غطت شجرة اللبخ بعد غيبة طويلة ..

كانت هذه اللحظة مولد أمل كبير فى قلبه فتناول فطورا شهيا وقرأ الصحف ونادى على الفلاحين فناقشهم فى كثير من مشاكلهم وكأنه لم يغب عن أرضه يوما واحدا .

ولم يطلب من أحد أن يصلح له عجلة الكرسى . كان مصمما على أن يسير وواثقا أنه سينجح ..

وفى الصباح الثانى تكرر الموقف ، وفى الصباح الثالث حدث نفس الشىء وفى الصباح الرابع بينما كان واقفا فى الشباك ينقل بصره

من الشجرة إلى الطريق لاح له شبح شاب يعبر الساحة أمام البيت بخفة وعجلة وهو يحمل له لفافة صغيرة .. وفحصه بقلق .. إنه يشبه ابنه البحار.. لعله هو .. إن له نفس القامة والمشية .. ها هو ذا يقترب .

وتأوه في شوق : آه .. إنه ابني .. وتأوه مرة أخرى وكاد يسقط على الأرض لكنه تماسك .. إنه على وشك أن يطير بجناحين .. إنه الآن عند باب الشقة وقد قطع طول الحجرة إلى الباب دون أن يشعر .. مشى على رجليه ..

وتساقطت من عينيه الدموع وهو يحتضن ابنه الذى عاد . وظل طول شهر كامل هناك فى الريف يمنح السعادة لسكان المكان الذى منحه الحياة من جديد ، ويرقب شجرة اللبخ من النافذة مع كل صباح ببشاشة من يحدث صديقا .

كان تاريخ هذا اليوم منقوشا على قلبه .. يتذكره تلقايا كل عام ويعرفه بين الأيام بأمارات تحس ولا توصف .

هذا اليوم من شهر فبراير .. له رائحة .. كان يستيقظ من نومه - ربما من غير انتباه - فيجد الغرفة قد امتلأت برائحة يشمها القلب . رائحة لامرأة يفوح من ملابسها عبير صابون معطر .. ملابس غير مكوية . فيها كسرات الغسيل . طويلة فضفاضة تخفى تقاسيم بدنها .. وفى عينيها نظرة كسيرة كأنها تواجه الشمس .

كم كان يحبها ! خصوصا عندما تضحك . تظهر من فمها أسنان صافية فى بياض اللولؤ . والدفء من ضحكها يغمر المكان ، كشمس (أبريل) فى أول النهار.

كان يسأل نفسه : « لماذا لاتختفى ملامح هذا اليوم كلما ازداد ابتعادا فى الزمن ؟! لكأنما أصبح هو نفسه .. الزمن بأجمعه .. تحول (الجزء) إلى (كل) شامل . يوم واحد يتحول إلى كل هذا ؟! »

ويمر العام وينسى اليوم والصورة ثم لا يلبث أن تعود على فترات بالابتسامة المضيئة التى تدفىء الدنيا والنظرة الكسيرة التى كأنها تواجه الشمس والبياض الصافى لأسنان تشبه اللؤلؤ .

***

استيقظ اليوم مبكرا من النوم . واليوم يوم جمعة .. يوم عطلة من العمل .

كان نائما فى حجرة صغيرة فى شقته ليست هى الحجرة التى ينام فيها عادة . وكانت السماء تمطر طول ليلة أمس . وكان يستمع إلى نقرات المطر على خشب النوافذ وهوفى حالة ليس نوما ولايقظة . كانت عيناه متمردتين على النوم .. وربما كان لا يريد أن ينام . وخالطت سواد ليله أحلام بيضاء فى صفاء أجنحة الملائكة ..

واستيقظ مبكرا . واليوم يوم عطلة . وعندما فتح النافذة رأى السماء كأنها مغسولة . وعلى أشجار الشارع خضرة زاهية تنبض بالحياة .

ولم يفتح الزجاج ليتنفس هواء الصباح فقد خيل إليه أن النسيم نفذ إلى صدره من خلال الزجاج ..

نعم .. ثم غادرالنافذة . كانت عيناه مليئتين بالنور حين توقف فى وسط الحجرة . على فمه ابتسامة والقلب ملىء بالبهجة . وفى الجو عطركأن الربيع فى شهر فبراير .

ثم تحرك خارجا من الغرفة . وقطع الصالة فى طريقه إلى حجرة أخرى . يمشى على حذر كأنه يخاف أن يزعج أحدا . ولما وصل إلى الباب وقف عنده يستمع .. ليس هناك نغمة تصدر من الداخل . وكل شىء ساكن كأننا فى منتصف الليل .

وبدا له أن يرجع لكن قلبه كان معلقا بمن هناك ، فأمسك أكرة

الباب وأدارها برفق وعض على شفتيه كأنما ليمنع الباب من الصرير، فرأى على الفراش المزدوج زوجته التى رقدت منهوكة وقد أرخت إلى جبينها ذراعا كأنها خالية من العظم ووضعت على وجهها ذراعها الأخرى .

ولذ له أن يراقب نومها فتقدم إليها ووقف يحملق فى الشفتين اللتين أمتعتاه بالسمر طوال عامين .. منذ أن تزوجا . وقد كساهما الصمت والشحوب نوعا من القدسية .

وإلى جوارها فى لفائف .. شىء صغير. طفلة فى مستهل الحياة ذات وجه خلو من التعبير وعينين مثل عيون القطط . طبقت كفيها كأنما تمسك بطرف الخيط الذى غزلته حواء بخديعة أدم ..

كان كل شىء فى الحجرة بالنسبة إليه مكملا لهذا المنظر .. بل الدنيا كلها إطار له . عيناه تقعان الآن على أهم شىء فى الوجود .

وتبسم وهو يسأل نفسه .

ما الذى يدور الآن فى رأس كل منهما من أحلام !؟

وحركت الطفلة شفتيها فى حركة غريزية كأنها تمتص شيئا وصدرت من الأم تنهيدة عميقة كأنها انتهت من حلم ورفعت ذراعها من فوق رأسها وفتحت عينيها ..

كان هو هناك لا يزال واقفا يبتسم وبدأت ابتسامة الزوجة تشع حتى إذا بلغت غايتها ردت عليه التحية :

ـ صباح الخير. هل نمت مرتاحا ؟

فجلس على حافة الفراش يعدل من ذوائب شعرها الذى بعثره النوم ويثرثر بحديث لايخلو من التسلية . ثم قام إلى نافذة ففتحها بحرص فتدفق النور من الشباك وبدت السماء ندية كأنها مغسولة ووقف عصفور على حافة النافذة ينقرالزجاج فابتسمت الزوجة وسألته :

ـ هل نحن فى الربيع ؟

فقال وعيناه تحملان معنى عظيما :

ـ نعم .. ألاتشمين رائحة الأزهار ؟!

ولماأشار إلى الطفلة وهوينطق بهذه العبارة مدت إليه كفها الرخصة فأبقاها بين كفيه .

***

وعند العصر كان البيت كله فى ضجيج ..

كان هناك لمة من الأهل والأقارب تجمعوا فى الصالة . وكان لغط الأطفال يغلب على كل شيء .ولم يكن هناك مجال للاحتجاج من الكبارفقد كان الفرح من أجل الطفولة ..

أحس الكبار كأنهم مدعوون وأن مكانهم ليس فوق خشبة المسرح وإن كانوا هم الذين رتبوا كل شيء .

وتحت أشرطة الأوراق الملونة وقف أطفال من كل سن يحملون الشموع ويرددون الغناء والضحكات بطريقة غيرمنتظمة . وعندما انطفأت الشمعة في يد طفلة ووقف طفل يشعلها لها من شمعته وعيناه تحملقان فى خدها المتورد وقد التصق بها فى حب ـ ضج الكبار

بالضحك .

وإلى جانب الأم التى تحتفل « بسبوع » هذه الطفلة الأولى فى فرحة وأمل كانت هناك أم أنهكتها الولادة تنظر إلى كل ماحولها باستخفاف وتسأل بين لحظة أخرى عن ساعة العشاء . وامرأة أخرى لم تنجب .. كانت تنظر إلى كل ماحولها نظرة مأخوذة تستردها بابتسامة وكأنها فى عالم سحرى .

وخف الضجيج شيئا ما حين وقف خال الطفلة وهو شاب فى السابعة عشرة وأعلن أنه سيعزف لحنا تحية القدوم على الكمنجة التى تعلم العزف عليها حديثا .

وتعلقت أنظارالحاضرين بقامته النحيفة ويده البيضاء وهو واقف مائل الرأس مغمض العينين يحرك القوس على الأوتاربطريقة لاتخلو من مهارة .

أما الأب فلم يدر لماذا أحس بانقباض طارىء ..شعر بالفرحة التي ملأت قلبه تغيض شيئا فشيئا كما يغيض الماء حتى أوشكت أن تنتهى ..

وأغمض عينيه وهو جالس بعد أن تأمل طويلا فى الشاب المغمض العينين الذى يعزف وهو واقف وأخذ يبحث عن السبب فى الوقت الذى ارتفع فيه ضجيج الأطفال فى ركن داخلى من المسكن . فخيل إليه أن هذا اللحن هو سبب انقباضه فقد رجع به إلى ذكرى عشر سنوات أيام شاع وانتشر بعد تأليفه مباشرة ولم يكن مصاحبا



أما الأب فلم يدر لماذا أحس بانقباض طارىء

بغناء ..

وبدأت الخواطر تتوارد ..

آه .. كان شابا أيضا .. آه .. حديث السن جدا ، نعم . ابن سبعة عشرعاما .. آه .. وهز رأسه وهومغمض العينين . كان فى مثل هذا العازف تماما . وفى طراوة عوده . وربما فى سذاجته النسبية .

وفتح عينيه فرأى الجالسين يحملقون فى الشاب ويرقبون فيه ملامح عازف ناجح . وأم البنين منسجمة فى ارتياح لا بأس به كأنما نسيت متاعب الدنيا . أما الباقون فقد ركبوا على شفاههم بسمات مختلفة المقاس .

وعاد فأغمض عينيه كأنما كان فى اللحن مخدر..

وعاد فتذكر:

ـ « آه .. كنت ابن سبعة عشر ربيعا . والليلة ممطرة لكن الجو ليس قارس البرد .. ما أجمل هذه النغمة .. إن لهذا الولد مستقبلا .. نعم .. وخرجت من مسكنى المفرد البارد الرطب . وقصدت إلي بيتها .. ما أجمل هذه النغمة . إن لهذا الولد مستقبلا بلاشك .. نعم .. وتناولت معها عشاء . كل شىء كان جميلا دافئا لكن لم يكن هادئا .. كان الاضطراب يملؤنا.. »

وهز رأسه وابتسم وهومغمض العينين واستطردت أفكاره :

ـ « كان اسمها علي اسم زوجتى .. آه لو تعلم ما أجمل هذه النغمة .. إن لهذا الولد مستقبلا . نعم .. ودخلنا معا أنا وهى عالما

ليس له حدود . كنا أحيانا نصرخ من فرط السعادة ثم نضع أكفنا على أفواهنا حتى لايتسرب إلى الخارج صوت .. آه .. ما أجمل هذه النغمة إن اللحن على وشك أن ينتهى .

وودعتها وعدت إلى بيتى فإذا ببرقية بانتظارى فى الباب مع ساكنة عجوز فى السلاملك .. قدمتها لى بعد مقدمة ..آه .. انتهى اللحن .. إن لهذا الولد مستقبلا..

وصفق الحاضرون .. وفتح كل مغمض عينيه ونظر الحاضرون بعضهم إلى بعض . والأطفال فى الركن الداخلى يغنون . وهويتذكر نص البرقية .. كم كانت مفاجأة غير مرتقبة ليلتئذ . بات وحده بقية الليل فى الفراش البارد والحجرة الوحيدة . وكان جو فبراير عاصفا وفى السماء سحاب ينذر بالمطر ..

***

وانصرف المدعوون وسكن البيت ..

لم يعد فيه إلا ثلاثة . طفلة نائمة وأم مستلقية على ظهرها فى الفراش تنهب الراحة .. والزوج ..

كان جالسا على حافة الفراش وأمام عينيه صورة لامرأة يفوح من ملابسها عبير صابون معطر . والملابس غيرمكوية وفى عينيها نظرة كسيرة كأنها تواجه الشمس .

وكان الصمت يظلل على الحجرة . وعدة شموع ترسل نورها على مقربة من السرير . وخيل إليه أنها تهمس وتسأل عن تاريخ هذا اليوم .

غير أن السؤال كان صادرا من زوجته :

ـ اليوم ٢٣ فبراير .. تمام ؟!

فهز رأسه موافقا :

ـ تمام .

ـ ظننت نفسى مخطئة .

ـ أبدا .

ـ مالك ؟ كأنك .. لاأريد أن أقول مهموما .

ـ نعم أنا مهموم .

فهتفت مستغربة :

ـ فى ليلة « سبوع » طفلتنا الأولى ؟

ـ هناك شىء مهم نسيته . كان لابد أن أشعل عشر شمعات فوق مقبرة أمى التى ماتت منذ عشرسنوات فى هذا التاريخ وعلمت خبر وفاتها ببرقية كنت كل سنة أزيد شمعة على قبرها . وأسقى أشجار الصبار . ولكن .. ها أنت قد رأيت . لم يكن يشغلنى شىء إلا اللحن والشمع والغناء ..، ثم تذكرت فجأة . لكن .. آه .. لست مهموما بالقدر الذى تظنين .. لأننى فى الواقع أرانى خاضعا للمنطق .. فقد أنستنى قوة الحياة شموعا كان يجب أن أنيرها هناك .

وتخايلت أمام عينيه صورة الضحكة المشرقة . وملأت أنفه رائحة الصابون المعطر عندما ذكر أمه .

وسكتت الزوجة . ثم قالت وهى تمرر يدها على شعره :

ـ ألا يمكن أن تنيرها هنا ؟! مكانهم فى القلوب ياحبيبى .

فقال وهو ينظر إلى السقف :

ـ ممكن . نعم..

ومنذ هـذه الليلة صار عـدد الشموع يزيد كل سنة شمعة . على « تورتة »عيد ميلاد الطفلة .

الرحلة المقدسة

خيوط النور

كان كل شيء هادئا في الليل الساكن .. في جو نوفمبر الذى يميل إلى البرودة وفى الظلام ذرات من الضباب يبدو واضحا حتى ولو أشعلنا عود ثقاب ، وكل شيء معد تماما . رسمت الخطة بإحكام شديد بحيث لايكون هناك ضحايا .

وكانت الصحراء مسرح عملهم حيث يقع معسكر لجنود الإنجليز ومخزن للذخيرة . ولعل المعسكر كان صغيرا لكن المهمة الأولى لهؤلاء الشبان كانت تفجير المخزن . ولم يكن عمل الفدائيين قد نشط بعد فى هذه الفترة من الزمن بل كانت بوادرحركة التحرير فى أول مولدها .

كان كل شيء معدا تماما . فالليلة مائلة إلى البرودة والسماء بلا قمر ولعلها بلا نجوم ، وعلى مقربة من الطريق غيرالمرصوف المؤدى إلى المعسكر جهز لهم بعض الفلاحين من سكان المنطقة حفرة فى الصحراء عميقة إلى حد يصون اللاجيء إليها ثم غطوها بفروع الشجر على مقربة من شجرة (طرفاء) يمكن الاهتداء إليها فى الليل .

وكان موقع المعسكر محصنا طبيعيا . فالطريق المار به طريق فرعى ضيق . يؤلف شطا لترعة عميقة تمر بأرض متاخمة للصحراء . فأصبح الطريق والترعة والليل والصحراء والأسلاك والحرس ـ أصبح هذا كله سورا طبيعيا يمنح نوعا من الطمأنينة النسبية لمن اغتصب حق

غيره .

وكان كل شيء معدا تماما ... حين خرج الشبان الخمسة من إحدى العزب الصغيرة وقد حملوا كل المطلوب ، واتجه ثلاثة منهم إلى الطرف الشرقى من المعسكر حيث تترامى الصحراء بمتاهاتها فى جلال تحت جنح الليل واتجه الاثنان الباقيان نحوالغرب على مقربة من الطريق والترعة ... مر الخمسة صامتين كأنهم يخافون حتى من الليل أن يعرف سرهم . وعندما وصلوا إلى النقطة التى يجب أن يفترقوا شد بعضهم على يد بعض . وكانت أكفهم تتخبط فى الظلام متلمسة طريقها للتصافح لكن ضغطة السلام كان لها لهفة القبلة ... كان كل منهم يقول فى نفسه : « ترى هل سنلتقى ؟! »

واتجه ثلاثة منهم إلى الطرف الشرقى من المعسكر حيث تترامى الصحراء بمتاهاتها .. واتجه الاثنان الباقيان نحو الغرب على مقربة من الطرق والترعة . وبعد مضى ساعة من الزمن حان الوقت الموعود لتنفيذ الخطة .

وكانت الخطة مؤلفة من قسمين كل واحد منهما يخدم الآخر ، فعندما يشعلون النار فى فتيل إحدى القنابل التى صنعوها بأيدهم وتتفجر ناحية الغرب سيسمعون صوتها فى المعسكر ، ويرون وهجها وستمتد النار إلى شريط من القش السريع الالتهاب ، ومن خلال هذا اللهب ستدوى عشرات من طلقات الرصاص وضعت بنظام فى شريط غمس بالبنزين ، عند ذلك سيظن جنود المعسكر أن معركة سافرة ستبدأ

بين الوطنيين والمحتلين وستتجه كل الأفكار إلى ناحية الغرب فى الوقت الذى يزحف فيه الثلاثة ليلقوا المتفجرات على مخزن الذخيرة ، وقبل أن تتجه الأفكار ثانيا إلى ناحية الشرق يكون الثلاثة قد قطعوا شوطا معقولا فى طريقهم إلى الهرب . أما الاثنان فعليهما أن ينزلا إلى الماء فورا ليعبرا إلى الشاطىء الآخر وكل شىء معد من أول اليوم حيث شد الفلاحون لهم حبلا بين الشاطئين عليهما أن يعرفا طريقهما إليه بشجرة الصفصاف الصغيرة أن يجعلاه معبرا يساعدهما على السباحة فى هدوء ويكون ضمانا لهما من أن يتعرضا للغرق .

هكذا كانت الخطة معدة . وكانوا قد تناولوا عشاءهم عند فلاح آواهم فى العزبة التى خرجوا منها . وكان العشاء فطيرا وعسلا ، ودعا لهم الرجل وابتهل إلى الله أن يلقاهم مرة أخرى وابتسم لهم وهو يكتم دموعه ...

ولم يكن منظره بعد قد فارق مخيلة الشابين بعد ما وصلا إلى الحفرة القريبة من شجرة الطرفاء وهبطا إليهما ، وبعد أن جلسا فى قاعها بانتظاراللحظة الحاسمة أحسا أن الليل أشد سكونا . ولم تلبث الطلقات الطائشة التى تخرج من المعسكرات عادة بالليل أن تناهت إلى سمعهما فشعرا كأن العدو يدعوهما إلى البدء فى المعركة .

وكان معهما .. فوق .. عند رأس الخندق الصغير كل معدات الحرب ... هذه الحرب الصغيرة التى يشنها خمسة من الشبان فى سبيل تمهيد الطريق لخلق خمسة ملايين من الجنود المدربين يوما ما .



ولم تلبث الطلقات الطائشة التى تخرج من
المعسكرات عادة بالليل أن تناهت إلى سمعهما .

كانت أفكارهما متقاربة ولو أنهما لم يكونا يتكلمان . كل منهما يتصور مدى ماستفعله فى المستقبل معركة عتادها قش وبنزين وقنبلة صغيرة ساذجة الصناعة . وحبل ممدود تحت سطح الماء ليكون سبيلا لنجاة ، وكان أحدهما طالبا وكان الآخرفلاحا ، ولم يكن أحدهما يرى فى الظلام وجه الآخر ولكنه كان يسمع أنفاسه . كانت خلجات قلب كل منهما تصل إلى صاحبه فى الخندق عن طريق التنفس . فأحسا بوحدة المصير، وبروعة القوة غير المرئية ولا المنظورة التى حبست الجن فى القمقم . وتخيل كل منهما أن حواجز الأسلاك والأحجار حول معسكر العدو الرابض فى وطنهما مثل جدار القمقم فى الأسطورة . وأخذا يتخيلان بقية العملية .. ويتساءلان فى لهفة صامتة يزيدها الليل والخطر بل وانتظارالموت عمقا وقدسية ـ يتساءلان : « ترى من سيكون صاحب اليد الطيبة التى ستحمل هذا القمقم بمافيه وترمى به فى البحر على شواطىء مصر ؟! »

وتنهدا فى نفس واحد . كان الموقف قد حولهما إلى رجل بجسمين . وسارع الفلاح يسأل الطالب : لماذا نحن منتظرون ؟ لماذا لانبدأ العمل ؟ إن الثلاثة هناك لا بد أنهم قلقوا !!

فرد عليه الطالب : هه !! ماذا تقول ؟! .. لست أعرف السبب.. هناك أشياء نفعلها بلا علة معقولة ...

وصمت قليلا . ثم عاد يسأل زميله : هل تريد الآن ؟ فرد عليه : ولماذا لا ؟'

ولكن الطالب لم يتحرك .. وكانت رائحة البنزين تملأ الخندق وطعم العسل لا يزال على زاوية فم الطالب حين لعق شفتيه بحركة غير مقصودة . ولم يدر لماذ تفاءل حين أحس طعم العسل على شفتيه !!

كانت نفسه الكبيرة فى ساعة هذا الخطر لم تتخذ قرارا بعد . وحمل الليل الأخرس إلى سمعهما طلقات تئز فرفعا رأسهما ينظران إلى السماء . كان هناك نجوم تطل من بين سحاب متفرق تغمز كأنها عقارب ساعة تشير إلى مرور الوقت . واسترد الفلاح بصره وقال لصاحبه : بنا .. كفاية .

وهما بأن يتحركا ليبدآ تنفيذ الخطة لكنهما عادا إلى مكانهما بسرعة فقد تناهى إليهما فى الليل الساكن صوت محرك سيارة « جيب » آتيا من ناحية الجنوب كان يقترب بسرعة عظيمة . وكان مفهوما بما لايقبل الشك أن ركابها إنجليز . فما من وطنى يعبر هذه المنطقة فى مثل هذا الوقت . وأحس الشابان بالاكتئاب . خافا أن يفسد القدر تدبيرهما . ثم .. إن المهمة التى نيطت بهما مهمة جزئية بالنسبة لما سيفعله الثلاثة المنتظرون . فضلا على أن طريق النجاة بالنسبة لهما أكثرضمانا من الثلاثة الآخرين ....

وامتلأ الليل بصوت المحرك وفرش النور جزءا كبيرا من الأرض البور فذكر الطالب أنوار القاهرة التى تركها منذ أسبوع وشوارعها المضيئة هكذا ، ومحركات السيارات ... لكن رائحة البنزين فى الخندق ردته فورا إلى واقعه ، فتحسس بندقيته ونادى زميله : « هل أنت

مستعد ؟! » فضحك الطالب : للموت ! فقال زميله بجيم ريفية كانت عذبة الوقع فى هذه اللحظة : «للموت ؟! هل تريد منى أن أستعد للزواج » .

وفى هذه اللحظة توقف محرك السيارة ، وسمع الشابان فى الخندق صدمة لم تكن منتظرة طار لهما قلبهما . فقد انقلبت السيارة فى حفرة خادعة حفرها على الطريق بعض الفلاحين وغطوها بتراب . ولم يدر الشابان ماذا حدث بالضبط لكنهما كانا على يقين أن الرياح هبت عكس اتجاه السفينة ، وأن متاعب غيرمنتظرة ستقع لهما حالا .

وعاد إلى الليل سكونه ، وصمت محرك السيارة ونزل منها جنديان وقد ملأهما الرعب وصارا يطلقان النار فى كل اتجاه ، وخرجت من المعسكر طلقات نارية جعلت كل شىء يضطرب فترة من الوقت .

لكن كل شىء ما لبث أن عاد إلى الهدوء . وجعل الشابان يقدران الوقت : إن الجنديان قد وصلا إلى المعسكرفقد مضت ساعة من الزمن ولو كان فى نية من هناك أن يعود لتفقد المكان لفعلوا .

وقال الطالب فى نفسه : « إن الأرض تقاتل مع أصحابها كما يقولون بدليل أنهم تصوروا حفرة ربما كانت على سبيل العبث لاالحرب ـ تصوروها موقعة كبرى . لعلهم يرسمون الآن خريطة القتال .. وابتسم فى نفسه ثم قال لزميله :

ـ لعلهم الآن مشغولون بهذه الحادثة وبالبحث عن علة معقولة لها .. بنا نبدأ العمل !! » .

فخرجا .. خرجا من الخندق وعلى ظهركل منهما حمولة . وكانت رائحة البنزين تملأ أنف الطالب ، وتقدما يزحفان ثم فرشا القش على هيئة شريط دسا فيه شريط الطلقات النارية ووضعا القنبلة عند حافته ، وكان طرق الفتيل يحمل لهبه الخافت قبل خروجهما من الخندق . وكان الفتيل محتاجا إلى نصف ساعة كانت كافية جدا لعودتهما إلى الطريق والعثور على شجرة الصفصاف والحبل . وعبور الترعة . حيث الأرض هناك أكثر خصوبة وحيث ينتظرهم من يحملهم بسيارة .

وتم كل شىء بسهولة لم تكن متمشية مع العثرات الأولى ، وهبطا إلى الماء لكن الطالب تجمدت يداه وهو فى وسط الترعة وكاد يفلت منه الحبل ولو كان زميله أمامه لضاع فى الماء . لكن زميله انتبه إليه واحتضنه وسبح به ، وبعد ماخرجا من الماء ونزلا فى الأرض المجاورة كان بانتظارهما من سيحملهما فى السيارة ، وبدلوا ملابسهم وانطلقت بهم السيارة فى أرض غيرممهدة ودون أن تشعل نور المصابيح.

وفي إحدى القرى الواقعة على بعد خمسة كيلومترات من الشاطىء الغربى المقابل للمعسكركانت عيون الشابين تنظر من إحدى النوافذ فى الليل البارد لترى وهجا شديدا ناحية الشرق جعل السماء أرجوانية اللون ، لكن فرحتهم كانت مشوبة بالقلق ..فقد كانا يتساءلان : هل تمت النجاة للثلاثة الباقين ؟

وعندما سألهم الفلاح المضيف عن عددهم ، قالوا : خمسة

فأجاب باعتزار : ولا خمسة مليون ، الله يحميكم .

فعادت الخواطر من جديد إلى رأس الطالب ... تلك التى كانت تملأ مخيلته ورائحة البنزين والليل تملأ أنفه ـ حين كان يقول بينه وبين نفسه : « ماذا ستفعل فى المستقبل معركة عتادها قش وبنزين .. و .. خمسة من الشبان يمهدون الطريق لخلق خمسة ملايين من الجنود المدربين يوما ما .. و .. من صاحب اليد الطيبة التى سترمى بالقمقم فى البحر على شواطىء مصر ؟! »

وجلجلت من الفلاح المضيف ضحكة صافية وقال المضيف :

ـ نحن نفكر والله يدبر ، ألا تريد أن تستريح ؟! »

فقال الشبان : لقد استرحنا فعلا .. تصبح على خير .

الحفيد الصغير

كان وحده فى مقصورة القطار .. وليس هناك نور يؤنس المقصورة إلاشعاع يتسرب من بابها الزجاجى يرسله مصباح الطريق الأزرق .

كان ذلك بسبب الحرب ، والقطار يجتاز منطقة شبه عسكرية قادما من محطة القاهرة إلى الشمال مارا بمعسكر « الخطاطبة » . لذلك فإن المقصورة بدت كئيبة لأبعد حد تنمى فى داخله أفكار الوحشة والضيق والضجر . ولم يخفف من حدة المنظر إلا أمله فى أن يبزغ القمر فقد مضى وقت من الليل يؤكد أنه سينهض بعد قليل وعند ذلك يستطيع شعاعه الذى عجزوا عن تلوينه بالأزرق أن يلقى على المساند الجلدية فى المقصورة شيئا من الأنس . ويستطيع هو أن يرى فى المرآة الصغيرة المثبتة على الجدار صور المرئيات وهى تجرى نحو الوراء .

إنه يحس بحاجة قصوى إلى النور لأنه سينزل فى المحطة الريفية فى وقت متأخر من الليل .. نعم .. لكن سفره كان ضروريا . وربما لم يكن أحد هناك بانتظاره . وفى الخريف تفيض المساقى على الطريق الضيق المؤدى إلى القرية . وإذا لم يكن هناك قمر .. فربما غاصت قدماه فى الأوحال . وسيكون منظره غير محبوب عندما يدخل على حشد الناس المجموعين أو ... حتى على أقاربه وهو بهذا المنظر .

وحانت منه التفاتة نحو الشرق فرأى القمرخلف الشجر مثل قرص

من النحاس فى بهاء لم يشهده من قبل ... بهاء تحفه القوة لأنه سيمد له المعونة عن طريق نوره . وتذكر كيف أنه كان يلعب تحت نور هذا الكوكب دون أن ينتبه لأى شىء إلا اللعب . وجده جالس على مقربة منه يحذره من خطر مجهول . ويهدده بعصا غليظة من المحال أن يتحمل منها ضربة ، ذلك الجد الذى اشتهر بالقسوة والبخل وطول العمر فى كل الرحاب . لكنه لم يستطع إلا أن يحبه لأنه لم ير أباه ... فقد مات أبوه وتركه ابن سنتين لايعرف عن الوجود شيئا .

ولما كبر وعرف صورة أبيه عاش فترة وهو يجاهد أن يرى ملامحه فى وجه جده . خصوصا فى الأنف والجبين . الأنف المستقيم والجبين الواسع . تلك العلامة التى تكاد تكون إحدى بصمات الوراثة فى هذه الأسرة .

ارتفع القمر على الأفق بمقدار عشرين قامة . فغمر شعاعه الحقول وتسلل من النافذة . وأحس هو بشىء يشبه الجوع أوالحنين ... بنزعة شباب حية ونداء لا يعرف الصمت . فتذكر عمره .. إنه فى الثلاثين . يشغل وظيفة فى « بنك » ويحب فتاة فى قسم « الكمبيالات » ويسكن شقة صغيرة هادئة . وأخوه الأكبر من رجال البحر فى أحد المراكب التجارية عودته كثرة الأسفار نسيان الناس فهو فى نظر جده ونظره هو .. مفقود تقريبا .

وأخته التى تصغره تزوجت . وأمه .. تزوجت أيضا .. فبعد موت أبيه بخمس سنين تزوجت أحد رجال البوليس ونقل بها بعد عام من

الزواج ..

***

لكن .. إنهم يزعمون أن جده كان سببا لكل هذه الأحداث . فلم يكن موت ابنه إلا نتيجة طبيعية للحرمان والكبت . فكانت حياته مع أبيه .. مع هذا الجد .. نوعا من الصراع مع رجل يريد أن يعتصر كل شيء حوله ليصنع لنفسه مركزا فى الريف مبنيا على سعة الممتلكات وعدد البغال والبقر. حتى أحس ابنه يوما ما أن الصلة التي تربطه بأبيه لاتزيد على صلة الأجير وصاحب الأرض . لكنه تحمل كل شيء على أنه فى يوم ماسيكون هو المتصرف الأول . حتى إذا ما سنحت فكرة الزواج للابن نشب صراع من نوع آخر سببه التأجيل من محصول لمحصول حتى هدده ابنه ذات يوم بأنه سيتزوج فتاة بلا مهر.. تكون إحدى العاملات فى حقوله . واعتصم بغرفته فى البيت الكبيرشهرا كاملا لايخرج إلا لضرورة حتى أجيبت طلباته .. ثم أنجب هؤلاء .. ومات بسبب إصرار أبيه ذات ليلة على عدم إحضار طبيب لابنه هذا ... لأنه مهمل فى عمله .. مستهلك غيرمنتج .. لكن عندما اتضح له أنه لا بد من استدعاء طبيب المركز كان الالتهاب الرئوى قد قضى عليه .

***

كان القطار فى هذه اللحظة يمر على مقابر كانت سطوحها المقوسة المتشابهة ظاهرة تماما في النور والصحراء من ورائها ممتدة فى صفرة



كأنه هو الذى وهب نفسه العمر

وسكون شامل . فتنهد وتذكر المصير...

إن جده يبيت فى قبره الآن لليلة الأولى .. وها هو ذا مسافر بناء على برقية وصلت إليه . وهم هناك بانتظاره . وسأل نفسه : ترى ماذا عسى أن تقول أمه اليوم إذا ماعلمت بوفاته .. لابد أنها ستذكرقصته مع زوجها الذى عاداه حتى فى مرضه حتى أهلكه التهاب الرئة . وربما كانت قسوته هى التى دفعتها للزواج فلم يكن من حوله يرى أن شيئا ما يوجب الضمان .

ثم عاد هو بأفكاره إلى « البنك ... إلى القاهرة مرة أخرى حيث ذكر الفتاة التى تحبه هناك .. ولعل قسوة جده هى التى ذكرته بالحب .. كما نذكر الجنة إذا ذكرنا النار. واستغفر الله له .. لأنه على الرغم من تقدم سنه فإنه لم يتضعضع أبدا أمام حادثة ... كان يركب كل أسبوع ليذهب إلى الطبيب أويذهب إلى المحكمة لأن قضاياه لم يكن لها حصر. فقد كان متخصصا فى شراء الأراضى التى ينكص عن شراءها كل فلاح لما يحفها من مشاكل . وهو بذلك يأخذها بأرخص الأثمان . يمشى على الطريق متكئا على عصاه الغليظة مباهيا بطول عمره وبقايا صحته لكل شاب يلقاه . كأنه هو الذى وهب نفسه العمر. ولذلك فقد بدا كائنا لايؤمن بالموت فأكسب هذا قلبه غلظة طارئة زيادة على الغلظة الفطرية .

وعلى الرغم من أنه عذب ابنه الأوحد فى سبيل الزواج فإن هذا الجد تزوج خمس مرات ..

وتبسم عندما تذكر زيجات جده .. وأخرج علبة السجاير وأشعل سيجارة ومن غلاف العلبة التى لاصقت منديلا فى جيبه فاحت رائحة عطر ذكرته بالتى يحبها .. وسأل نفسه : لماذا لم ينجب جده من الأربع اللاتى تزوجهن بعد الأولى . لكنه ما لبث أن ضحك حتى ارتفع صوته وحده فى المقصورة فقد حكى عنه بعض الناس أنه كان مولعا بالبحث عن العواقر من الأرامل ... فكانت « خاطبة » القرية تقدم إليه فى المناسبات أسماء من عرفتهن من هذا النوع فى المنطقة كلها . وعند ذلك يجزل لها العطاء . يرسل إليها غرارة من القمح أو خمسا من الذرة فضلا على جلباب من الحرير الأسود .

***

وها هو ذا قد مات تاركا زوجته الخامسة .وحدها مع خادم عجوز أعمش يتحسس كل شىء بيديه . يريد من يدله على الطريق قبل مغيب الشمس .

وأحس وهو فى المقصورة عندما وصل إلى هذا الحد من التفكيرأن كل شيء قد هدأ . وخامره استرخاء غريب جعل النوم أقرب مايكون إليه فألقى رأسه نحو الوراء واستمع إلى صوت العجلات الرتيب فلم يشعر بشىء حتى توقف القطار فى المحطة التى يجب أن ينزل فيها .

لاحت له على بعد أضواء « الكلوبات » تغمر البيت الكبير . المنعزل عن القرية.. وحيدا .. نحو الشرق فى مكان لايؤنسه إلا وابور الطحين .

وعندما كان يجر أقدامه فى الأرض الفضاء التى تحيط بالبيت كان يتذكر أيام طفولته . وكان القمر فى بهائه فأحس كأنه عاد طفلا يلعب وعصا جده تهدده وتخيفه بشىء مجهول . وعندما خطا إلى الداخل انعصر قلبه . كان الباب الخشبى الضخم مفتوحا والحجرة التى مات فيها أبوه تقع على يمين الباب وأحس كأن البيت يودع آخر ذكرياته لكنه على كل حال غير آسف عليها فكأنما السور العالى المرتفع المصمت المضروب حول البيت قد فتحت فيه عدة نوافذ وكوى على الحقول . ولم يسمع أنينا ولابكاء . فكأن موت هذا الرجل الذى لم يذكر الموت تأكيد لقصر الحياة ووجوب انتهابها . ورأى هذا المعنى بوضوح على وجوه من بالداخل .. فى الصالة الكبيرة التى تسع نصف ألف من الجالسين .

لم يكن فيها إلا الأقرباء المقربون الذين سلموا عليه وتبادلوا الكلمات المألوفة « البركة فيك » بطريقة خالية من اليقين .

وعجب هو لأنه رأى شقيقه نزل مصادفة فى الإسكندرية لمبيت ليلة فقرأ النعى . وسيسافر فى الصباح الباكر . وكذلك زوج أخته .

كانوا فى الصالة الواسعة التى انفض منها المعزون قلة قليلة . جلس بعضهم ينظر إلى بعض محاولين أن يتكلفوا فى نفاق شديد منظر الجد إن لم يكن الحزن ويتداولون فى فخار مصطنع أن الرجل الراحل كان فى خير صحة فى ساعاته الأخيرة وأنه كان على وشك توقيع عقد بشراء فدادين جديدة .

وظلل صمت طويل على الجالسين ممن يمتون إلى الراحل بصلة

« الوارث » ربما ظنه أحد حزنا لكن كان كل منهم فى حقيقة الأمر يريد أن يدبر أموره بسرعة لأن الوقت أمام الموتى طويل ومن الممكن أن ينتظروا جميعا حتى يوم القيامة أما الحفيد الأصغر فيجب أن يكون فى « البنك » بعد يوم . والحفيد الأكبر فيجب أن يكون فى الميناء قبل الظهر . وكان هذا هو أشجع الحاضرين فقد تكلم بلا مقدمة حتى بلا تنحنح أو سعال وقال :

ـ كيف سنتصرف في التركة ؟ .. أنا مستعجل !! إن مهنتى لاتعرف الانتظار .

فرد عليه زوج أخته :

ـ أليس من العيب أن نتكلم فى هذا قبل مرور يوم على جدك ؟

فرد باقتناع شديد :

ـ لا .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه ترك كل هذا مضطرا . ولو استطاع أن يأخذ كل شىء معه .. لفعل ..

فبكت زوجته فى ركن قريب عندما سمعت هذه الكلمة وبكى خادمها العجوز . أما الحفيد الثانى فقد تنهد .

كان يذكر أشياء أهم من كل هذا . كان يذكر الضحايا القدامى الذين كسحهم جده بحيله القضائية . ويذكر أباه وهو الذى كسحه جده بعناده ، وأمه تلك التى لم تطق الحياة معه فتركت أولادها وتزوجت بعد

ما أحضر لها زوجة له عاشت معها فى البيت امرأة عاقرا ضخمة الجثة كأنها رئيسة السجانات . تعاركت معها فأكلت كفها بأسنانها كما تفعل النمرة ، والجد على مقربة منهما يرقب المعركة كما ترقب الريفية عراك الدجاج ... لا أكثر !!

وجعل الحفيد الأصغر يفحص حجرات البيت الواسع العتيق . ذى السور العالى الخالى المصمت المطبق على الأنانية طوال نصف قرن . وجعل يفكر من منهم يستطيع تعمير هذا الربع ؟!. ثم ما لبث أن سمع شقيقه الأكبر يقول :

ـ أنا سأبيع نصيبى من الأرض « ونظر لهم جميعا بعين متحدية » والبيت أيضا « وحك الأرض بحذائه » وسآخذ هذا كله لأساهم به فى بناء مركب تجارى صغير أنا وجملة من الشركاء .

لم يرد عليه أحد . وظل الصمت مطبقا . فزاد الحفيد قائلا : وكذلك نصيبى من المواشى ، وسأجعل أخى الأصغر وكيلا عنى فى هذا . وسأعود إلى هنا بعد ثلاثة شهور لأجد كل شىء منتهيا .

ووقف . كان الجميع صامتين . وبلغ بهم الدهش والخوف إلى حد أنهم توقعوا أن يخرج إليه جده من إحدى الحجرات بالعصا الغليظة ويهوى بها عليه . ولما لم يأت رد أحد استطرد الحفيد الأكبر :

ـ سأنام .. سلام عليكم ..

وانصرف ..

نظر بعضهم إلى بعض . ومالبث زوج الحفيدة أن ضحك . كانت

ضحكته تغنى أنه غير ملزم على مجاملة من يرون الأمر هكذا .. إذن فلا حياء . وسيختار هونصيب زوجته الحفيدة بكل حرية . وعندئذ تدخلت زوجة الراحل وطلبت نفس الشيء . وأما الحفيد الأصغر فقد ظل صامتا حتى إذا ما احتدم الجدل أعلن أنه غير حريص على شيء إلا أن يكون هذا البيت من نصيبه وحده . ومادام هو وكيلا عن أخيه الأكبر فليس هناك مشكلة ..

فقال زوج أخته :

ـ ومن منا يريد أن يسكن هذه القلعة .. إنها قلعة مخيفة ملأها جدك ظلما ، وأنا أعلن بالنيابة عن زوجتى تنازلها عن حقها فيها ، فنحن نسكن شقة فى البندر .

وعند ذلك شعرالأصغر بما يشبه السعادة . شعر أنه سيعمل شيئا إنسانيا رائعا بالنسبة للجد . هذا الذى عاداه أهله حيا وميتا . ومن وجهة نظره هو فإن خصام الموتى لا طائل تحته ماداموا لايقفون فى وجه الأحياء ..

وعند ذلك أعلن أنه سيشترى منهم جميعا أنصبتهم فى هذا البيت لأنه هو الذى سيسكنه .

ونظروا إليه متعجبين وقال أحدهم :

ـ إنك فى القاهرة .. موظف فى بنك .. فكيف ..

فقاطعه بسرعة :

ـ ذلك شأنى لأنى لن أبيع هذا البيت لأحد .. إنه يحمل ذكرياتنا ،

أما الأرض فلها شأن آخر ..

مضت على هذه الحوادث شهور ثلاثة .. رأى بعدها سكان القرية مشهدا عجبا .كانوا لايصدقون أعينهم عندما رأوا عربات تنقل أثاثا جديدا غريبا ليدخل هذا البيت . ودبت فيه حركة أسمى وأعلى . وفتحت جميع النوافذ بكل المصاريع . ذات صباح والحفيد الأصغر حاضر ليشاهد الحركة .. وكلما مر فلاح وقف يسأل عن الحكاية ثم لايلبث أن يضحك ملء صدره ويمضى نحو الحقل ..

وعندما وافت الساعة الثامنة هذا اليوم تقدم الحفيد الأصغر ومد بيده فأمسك حبلا دق به جرسا . وعند صلصلته سكن الضجيج ... ضجيج تلاميذ القرية الذين تجمعوا فى الطابور وأنشدوا نشيدا وطنيا .. والحفيد الصغير واقف مع الناظر يستمع إلى الصوت النادى من حناجر الصغار .. وعيناه مغرورقتان بالدمع فقد استطاع بضربة واحدة أن يكتب لهذا البيت صفحة جديدة تنسى القرية ما جرى فيه من ظلمات ..

وقبل أن يسافر إلى عمله وليلقى حبيبته ذهب إلى قبر جده وسقى عليه شجرة من الصبار كان قد زرعها حديثا .

فى الطريق إلى السوق لم يكن الزوج يحكى أى حكاية .. وكان صامتا على غير عادته يسبق امرأته بعدة خطوات والشمس لم تشرق بعد . وجماعات من العصافير نبهها الدفء تسف على الحقول . تطير بها فرحة لعلها لم تكن فى قلب المرأة ..

لقد كانت تتعارك مع زوجها طول الليل . بسبب ذكريات عقيمة من الخير أن تنسى . استرجعتها وهى سائرة فأحست بطعم الملح فى حلقها لأنها شرقت بالدموع .

كان هو لا يزال أمامها . ترقبه عيناها بوله وحب .. على الرغم من القسوة التى أحالت فراشها إلى شوك . وظلت طول الليل وهو نائم، تبكى فى صمت وتعد أخشاب السقف حتى سمعت صياح الديوك ، فنهضت قبل أن يتسلل النور وأيقظته ليذهبا معا إلى السوق .

وعندما وصلت أفكارها إلى هذا الحد كانا قد وصلا إلى منعرج طريق وقابلهما شخص يعرفهما فألقى عليهما تحية الصباح ثم وقف وسلم . وأحست الزوجة وهويضغط على كفيها وينظر فى عينيها أن على شفتيه سؤالا من المحال أن يتجسم كان يسألها :

ـ هل أنت سعيدة ؟

وانصرف الرجل وواصل الزوجان سيرهما وعادت هى بأفكارها إلى

الليلة الماضية عندما وضعت العشاء أمامه وهى مليئة باللهفة ... فطير من القمح الجديد وطبق ملآن بالعسل . وجلست تأكل . ولكنها أحست وهى تجاذبه الحديث أن شيئا غامضا يظلل عليه . ولم تعره اهتماما كبيرا فى بادىء الأمر فقد قدرت أن المفتاح السحرى الذى تديره المرأة فى قلب كل رجل قادر على أن يزحزح الرصد فيتوج الحب ويملأ المكان عطر غامض كالذى يدخل عليهما من المصراع المفتوح من النافذة عندما يتقدم الليل فيسألها وتسأله عن مصدرالعطر وهما لايعلمان أنه من داخلهما ..

أما فى الليلة الماضية فقد كان الزوج يأكل وهو واجم . وبدت عملية الطعام ثقيلة جافة ولكنها هى التى أخذت تفتح باب الحديث .. فقالت وهى تتكلف ابتسامة :

ــ هل تعلم يا صادق أننى ارتكبت جريمة صباح اليوم ؟!

ولم يتوقف عن المضغ ولم يقل شيئا . كل ماعمله ساعتئذ أن نظر إليها بعينين نصف مغمضتين تشيع منهما نظرة لوم قوية قصيرة الأمد أشبه شىء بقبضة جبارة دفعت بها إلى الوراء . ولو أن اللقمة التى كانت فى يدها كانت مغموسة فى العسل فقد أحست عكس ذلك . لكنها قررت أن تقاوم فتركت ابتسامتها تتحول إلى ضحكة فيها مرح ووعد ونبرة حب ... ثم استطردت تقول :

ــ لم تسألنى يا حبيبى أى جريمة ارتكبتها .. ألا يجب أن تسأل ؟

فرد بلا مبالاة :

ـ قولى !

فقالت وقد أحست بأن قلبها ينبض :

ـ جلبابك الصوف القديم احترق فى عدة مواضع من شرارة نار

فردد آخر كلماتها :

ـ نعم .. من شرارة نار ..

ـ هيه ..

واستطرد يمضغ ثم يتكلم . كان يغمس الفطير فى العسل ويقذف به إلى فمه وهى تنظر وتسمع صوت المضغ . وأحست أن هذا شىء بشع . ولأول مرة أدركت القروية بمالا يمكن تفسيره أن مراقبة من يأكل عمل كريه . قد لا يحس المرء كراهته وهو يراقب بقرة مثلا . وكان الصمت شاملا . وكانت كل الأفواه فى القرية مشغولة بالأكل فلا وقت للكلام . أو كأن الناس نائمون . وزقزق طائر مختنق على شجرة قريبة تفهم الأذن العادية من صوته أن أقوى منه قد سطا عليه . وتنهدت الزوجة وهتفت تسأل :

ـ صادق .. هل أحزنك هذا الأمر ؟!

ولم يجبها منه إلا صوت المضغ . ثم كركرة الماء وهو يتدفق إلى فمه من القلة الى يشرب منها . وعاود الأكل فأحست أنه من الضرورى أن تعتذر :

ـ صادق .. كان الجلباب من الملابس التى ستغسل على مقربة من الكانون .. وفجأة فرقع فى النار شىء .. خفت .. جريت بعيدا ..



كان يغمس الفطير فى العسل ويقذف به إلى فمه

أحسست أن إحدى عينى ستذهب إن بقيت فى مكانى .. خفت ياصادق .. آه .. ألا تسمع ؟

ـ سامع ..

ـ آه .. خفت أن تكون رصاصة قد دست فى الوقود . كانت قطعة من الحجر أو الملح فى النار. ونسيت كل شىء وبعد مدة اكتشفت أن شرارة سقطت فى طيات الثوب ..آه .. آ .

ولما لم يرد انبثقت منها ضحكة طويلة .. هيستيرية تتغلب بها على المآسى . ولكن الزوج لم يخرج من جموده . وظللت وجهه كآبة سوداء . وشعرت الزوجة كأنها أمام رجل غريب . ولكنها أحست بين هذه المخاوف بفرحة شوهاء . فرحة من تكاد توقن بأن إعراض زوجها لهذا السبب التى قصت قصته لا لسبب خارجى ربما كن أخطر وهى التى .. وهى التى ..

وكفت عن التفكير وسكتت . لكن الزوج تكلم محتجا :

ـ يعنى .. احترق الجلباب ..

ـ إنه قديم .

ـ ها ها ها ى .. قديم ؟ .. ومن قال إن القديم رخيص ؟!

« وأشار بيديه إشارة مخزية » القديم غال ..

***

ـ « القديم غال ؟! »

سألت نفسها ورددتها وهى سائرة خلفه على الطريق ذاهبين إلى

السوق : « إنه أهانني » وكادت تذرف الدمع من جديد .

إن الدليل الحاسم على الإخلاص شيء لاوجود له . كيف أثبت لصادق أنني أحبه .. آه .. هذا ذنبي . ثم جرها من أفكارها صوته وهو يناديها . لقد قاربا دخول السوق . وعندئذ سارت إلى جواره . كان ذلك ضروريا حتى لا تتوه منه أو يتوه منها .. وأوصته بهمس عذب أن يحترس ففي جيبه أربعون جنيها ثمن البقرة التي سيشتريها اليوم . ولما دلفا إلى السوق استطاعت الزوجة لفترة طويلة أن تنسى حوادث الليلة الماضية لأنها كانت تتأمل الوجوه الكثيرة التي تزدحم حولها في السوق ..

***

ولم يدخلا القرية ثانية إلا بعد هبوط الظلام . وكان التوفيق الظاهر في هذه الصفقة سببا في صفاء الليلة فنام الزوجان سعيدين .. واستيقظت هي في الصباح الباكرفحلبت اللبن وجهزت له فطورا شهيا بالسكر والحليب . وخرج هولبعض شئونه وذهبت هي بالبقرة إلى الحقل.

***

ظلت ترعى طول النهار وتغني . لم يكن أحد يسمعها حتى وإن كان هناك من يسمعها فهي لاتراه .

فهي تائهة بين أعواد الذرة تراقب جلبابها المشجر وجسمها النادي .. ذلك الذي فتن « صادق » ..

وترنمت بأغنية حب .. آه .. كم تحبه .. وبلعت ريقها وتذكرت

غضبه منذ ليلتين .. ليلة حدثها حديثا ملفوفا عن الجلباب القديم .. ماذا كان يقصد ؟! آه .. ليس هذا .. إنه غير معقول .. إنه يعلم أننى ضحيت به من أجله هو .. يعلم أنه ليس أغلى منه .

وعادت تغنى بين أعواد الذرة وهى تجز الحشائش لكنها اختارت فى هذه المرة ـ بلا وعى ـ أغنية حزينة . وانقضى اليوم .. مالت الشمس إلى المغيب .. وأخذت قوافل الماشية فى العودة أمام الفلاحين إلى الدور . وسحبت الزوجة بقرتها وعادت .

ولكن حدثا لم يخطر على بالها وقع فجأة : عندما كانت تعبر القنطرة المؤدية إلى القرية جمحت البقرة كما يجمح الثور وجاذبت الزوجة الحبل وأفلتت منها .. واستهانت الزوجة بالمسألة بادىء الأمر ولكنها أحست بشعور غامض أنها أهم مما تتصور فقد كانت البقرة تجرى برعونة .

ولم يستطع أحد أن يحجزها فجرت هى وراءها حتى لاتضل عنها . وغابت فى احدى المنعرجات والليل يهبط فلم تدر الزوجة إلى أين ذهبت البقرة .

ومثل هذه الحوادث فى القرى ليست عظيمة الأهمية فإن العثور على المفقود ممكن على أى حال ، وبعد مدة أمكن الزوجة أن تستدل على مكانها فقد دخلت إحدى الدور وكانت مفتوحة الباب والتف حولها فلاح شاب وأمه وأبوه وهم يهتفون ويصفقون بدهشة من رأى ميتا يبعث .

ـ أليست هذه بقرتنا ؟ .. تعالى يا أمى فأنت تعرفينها .

ولمست الأم ضرعها وهتفت مؤكدة :

ــ يا إلهى .. لقد بعناها منذ سنة فكيف عرفت الطريق إلى دارنا ؟! من هذا الذى اشتراها من قريتنا . بارك الله له فيها .. انظروا إلى الوفاء فى قلب الحيوان ..

واستطردت الأم :

ــ تعال ياعبده فانظر الوفاء !

وتنهدت تنهدا له معناه .. وعلى باب الدار كانت صاحبة البقرة واقفة بعد أن عرفت مكانها .. كانت مترددة فى دق الباب تذرف دمعها فى صمت ، وتأتى إلى أذنها همسات غير مسموعة من زوجها صادق « القديم غال » .. لقد قيل له إنها تكلمه فى الطريق .. هذا الشاب صاحب هذه الدار كان صاحب هذه البقرة منذ سنة وزوج هذه المرأة من سنتين ..

ثم أحبت « صادق » فهجرته هو وتزوجت حبيبها ، ثم باع البقرة فى السوق . وها هى ذى قد اشترتها من جديد . ولما سلكت الزوجة القديمة والبقرة الطريق العام هربت البقرة إلى وطنها الأول ..

وكان على الزوجة أن تفعل شيئا ..

فتقدمت وطرقت الباب وخرج الزوج القديم والحماة وهى تحمل مصباحا ريفيا وينظران فى لهفة إلى الطارق ، وعندما وقع بصرهما عليها شهقا فى صمت ثم رجعا وقاداها إليها فسحبتها بعنف . ومشت البقرة تئن وتتلفت .. أما الزوجة فقد كان قلبها يبكى .. !

الحصن الكبير

لم أكن أتوقع أن هذا اليوم سيكون مشحونا بالعواطف وأننا مهما امتد العمر بنا تستطيع حادثة صغيرة أن تعود بنا إلى الوراء عشرات السنين ، فنعيش العمر كله في واقعة يعيشها غيرنا . ويستبد بنا الشعورحتى يتلاشى الإحساس بالذات . وهذا هو ماوقع لى صباح أمس وأنا ارتدى ملابسى للخروج إلى عملى ساعة الصباح وفى الحجرة المقابلة المفتوحة الباب حوار مبهم يأتى بعضه ويغيب عنى معظمه .. كان قائما بين ابنى وزوجتى تتخلله أحيانا ضحكات من الأم وحينا صوت تهديد .. وفى لحظات أخرى كنت أسمع صوت ابنى مستعطفا .. رقيقا حنونا يلين الحجر . وفى لحظة تالية كنت أسمعه ضاحكا متحمسا تشوب حماسته رهبة من يساق إلى الحرب للمرة الأولى .

أما أنا فكثيرا ما كنت أتجمد أمام المرآة وأنسى نفسى .. أنسى أننى ألبس لأذهب إلى عملى . لأن قلبى كان يتابع الحوادث فى الحجرة القريبة . ثم انتهيت من عملى بشكل ما ، وجلست فى الصالة أنتظر ابنى وأنا أحملق فى عداد النور و « مسبحة » نسيتها أمى على أحد الكراسى من الليلة الماضية ..

وخرجت من الحجرة البعيدة فى الشقة زوجتى بملابس البيت وهى

ممسكة بذراع ابنى . وقابلتهما بنظراتى وأنا أتأهب للقيام وأنظر فى ساعة معصمى بقلق حتى لا أتأخرعن عملى . وكانت زوجتى تكتم ضحكها وكان ابنى يحبس دموعه ، ولو أننى لاحظت على أحد خديه قطرة من الدمع مثل حبة من الندى نسى أن يمسحها قبل خروجه .

وامتزجت فى تصرفاتى الصرامة بالحب والقسوة بالحنان فى الوهلة التى مددت يدى إلى ابنى لنخرج معا . ورفع إلى عينيه وهو جامد لا يتحرك ووضع يديه الاثنتين فى جيبه ولم يتحرك . كنا واقفين عند الباب نؤلف نحن الثلاثة دائرة إن أمكن ذلك . ورأيت فى عينيه السوداوين توسلا لم أره فى حياتى . أحسست أن قلبى قد استجاب له ألف مرة ولو أن الحياة ترفضه بعنف . وعضت زوجتى شفتها بأسنانها فى أزمة عاطفية وتركتنا ودخلت . وبقيت أنا وهو وجها لوجة .. عيناه ترسلان توسلا يستجيب له قلبى وترفضه الحياة ، وكل ملامحه تنذر بقرب البكاء . وبدا الضعف والقوة على وجه الطفل فى هذه اللحظة كسلاح جارح يدعونا لأن نقبله . وناديته فلم يرد . ومددت إليه يدى فلم يمد لى يدا ، فأخذت أتأمل فرحة الأمس وفرحة اليوم . عندما ذهبت أنا وهو لشراء الملابس الجديدة اللازمة للمدرسة وكان يلبسها كل يوم مرتين ويقف أمام المرآة ويتبختر فى فرحة انتظار العيد . « المريلة ذات الحزام ، والقميص الأبيض ..كانت كل هذه الأشياء بالنسبة إليه فاتنة جدا حتى أمس . أما فى هذا الصباح فقد صارت مثل عدة الحرب .

وناديته مرة ثانية فلم يرد . فقلت له لكى أغريه :

ـ ألا تحب أن تكون رجلا مثل بابا وتلبس البنطلون وتحمل ساعة؟

أثرت فى نفسه هذه الأمانى التى طالما تمناها طوال الصيف على أمل أن تفيدنى فى حل الأزمة ويتحرك للذهاب إلى المدرسة لأول مرة فى حياته . لكنه أنكر كل هذا فى عناد . وأعدت عليه السؤال فهز رأسه نفيا . فقلت له :

ـ كل الأطفال يذهبون إلى المدرسة ليكبروا ، وكل طفل لايذهب إلى المدرسة لايكبر أبدا . يظل طفلا صغيرا قصيرا طول العمر. ومستحيل أن يلبس البنطلون الطويل مثل بابا . فما رأيك ؟

وهنا بدا التفكير فى عينيه السوداوين . وحرك شفتيه ولم يقل شيئا . ومد لى يده فى صمت فاتجهنا إلى الباب وكانت أمه متوارية فى أحد الأبواب تنظر من فتحته الحوادث الكبيرة ! .. بالنسبة للطفل.. أما الدموع التى كانت واقفة فى عينى الطفل ، وهتف من خلال شهقاته بطريقة أشعرتنى أنى أشهر سلاحا قاتلا فى وجه ولدى ، هتف أحمد :

ـ الحقينى .. يا .. يانينة .

ثم أمسك فى كرسى ثقيل لا يريد أن يتحرك .

وجاءت من الداخل زوجتى مستغرقة فى ضحكة هنية صافية ، فحملت الطفل إلى جدته التى لاتستطيع مغادرة الفراش ، وتبعتها أنا إلى حجرة « المداولة » هناك حيث تنام أمى . فوجدت أحمد يبلل خدها بدموعه ويعدها هو ... هو شخصيا بالحلوى والشيكولاتة .. فلما أحس أن جدته تراوغه نظر إلى بعينيه السوداوين كمن يفكر . وما لبث



وهنا بدا التفكير فى عينيه السوداوين
وحرك شفتيه ولم يقل شيئا

أن أشاح عنى ببصره حين رأى الأمل مفقوداعندى وصعد إلى فراش جدته وطوق عنقها ثم أكب على أذنها يهمس لها بما لم نسمعه . همسات كانت تقطعها الشهقات استغرقت بعدها أمى في ضحك شديد واحتضنت الطفل تقبله حتى كادت تكتم أنفاسه ثم باحت لنا بالسر من خلال دموعها وضحكها :

ـ سيفعل لى ما عجز أبوه عن فعله . سيدفع لى نفقات الحج . بشرط ألا أدعكم تذهبون به إلى المدرسة .

وأمسكت أنا بيده واتجهت به إلى الباب . وهناك قبل اللحظة الحاسمة .. قبل أن نقف وراءنا باب الشقة الذى يمثل عالمه بأسره . طلب منى أن يقبل أمه . وكنت متصورا ماذا سيحدث لكنى لم أجد مفرا من التسليم ، ومالبثت القبلة أن تحولت إلى عناق أشبه بالحصار الذى لا يفك ، وأملى الطفل علينا شروطا جديدة هى أن تذهب أمه معنا .. لابد أن نذهب إلى المدرسة نحن الثلاثة . ويبدأ يسكب دموعه فى صمت . فى استغراق الكبار حين يعتقدون أن الحديث عن المأساة معاد وأنه لاشىء يجدى إلا الدموع .

***

ودخلنا إلى الصالة ولبست أمه لتخرج ، وأمسك كل منا بكف من يديه الصغيرتين وسار بيننا يتلفت . ينظر إلى الحوائط كأن عليها رسوما لانراها . وعند باب الشقة وهو بينى وبين أمه وقف من جديد ونظر إلى الداخل ولمعت نظراته بمعان كبير ة.. كبيرة بمقياس الإحساس وكبيرة بمقياس السن . ونادى أحمد مثل رجل مكتمل الرجولة بصوت

مرتفع شرخته الدموع . نادى على أمى وهو واقف بينى وبين أمه :

ـ نينة .. نينة ..

فجاء ردها من الداخل :

ـ نعم ياحبيبى ..

فرد والغضب يملأ نبراته وقسماته ، وبأعلى صوته :

ـ أنا مخاصمك .. مخاصمك .

فلم يأتنا رد . فنظر إلى وجهى ثم إلى وجه أمه . وقال بإصرار شديد :

ـ يا للا بأه .

***

وخطا إلى خارج الشقة بين أبويه . وأقفلنا وراءنا الباب .. باب شقتنا فى نظرنا وباب العالم فى مقاييس الصغير . وكان يخبط الأرض بحذائه فى كل خطوة كأنه يؤكد لنفسه أنه يتقدم ..

لم نكن نتكلم . لاأنا ولا هى ولا الطفل . كان الصمت أضمن بلا أدنى شك . وكنت واثقا أن المشكلة لم تنته بعد .. ستتجدد المتاعب عند باب المدرسة .

لكن الذهول الذى كسا وجه الطفل من المجموع الذى كان يطن كالنحل فى الخلية لم يترك له فرصة للخوف ولا الاحتجاج ولا الهرب ولامجرد الكلام . نعم . واعترانى إحساس مثل إحساسه وأنا أخوض بين هذه الأزهار وأتأمل وجوه بنين وبنات سيمسكون بدفة المستقبل حين أكون أنا وأمه وجيلى وجيلها فى فراش الشيخوخة .

وسمعنا أطفالا تبكى .. لكن الغريب فى الأمرأن أحمد كف عن البكاء . لم أستطع أن أستكشف حقيقه نفسه وهويغالب نوازعه . لكننى أدركت أن شيئا واحدا هو الذى ألجأنا إلى هذا الموقف .. وهو أن حصنه الكبير كف عن الدفاع . جدته .. أسلمته بيدها للمدرسة على الرغم من تكفله لها بكل « الطلبات » !!

وعندما دخل باب الفصل قبلناه أنا وأمه . وكان هو صامتا . تبادلنا الموقف . تحولنا نحن إلى أطفال .. وكادت دموعنا تغلبنا .. فحاولت أن ألون الموقف بلون مفرح فسألته :

ـ هل تريد شيئا ياأحمد ؟

فهز رأسه بكبرياء من سئم من نفاق الناس ، وقال هامسا :

ـ لا ..

ـ عال .. مع السلامة ..

وضحكنا وعيوننا تدمع أنا وزوجتى .

وهناك فى المكتب سألنى رئيسى :

ـ لماذا تأخرت ؟

فقلت له مبتسما معتذرا :

ـ كنت أنقل اسم ابنى من دفتر لدفتر .

فزاد وجهه استفهاما . فاستطردت :

ـ كنت أنقل اسمه من دفتر غير المسئولين .. إلى دفتر المسئولين .

لقد دخل باب الحياة من باب المدرسة .. ياسيدى .

حرف النون

أخذ يتأمل الخط الدقيق الذى كتب به العنوان على غلاف الرسائل بعينين قلقتين . لم يدر لم استوقفه منظرها بين مجموعة الرسائل التى حملها بين كفيه بعد أن رتبها ترتيبا يتناسب مع أرقام البيوت فى الحارة . وعندما تخطى المنزل رقم (٨) وأنهى فيه مهمته أخرج الرسالة الأنيقة ليلقى عليها نظرة أخيرة : « ما أجمل هذا الخط النسائى ! .. إنه يشبه خط التقارب مثل ملامح الأطفال ».

وتنهد وهو يقطع الأمتار السبعة التى تفصل المنزل رقم (٨) عن المنزل (١٠) وحقيبة الخطابات مشدودة إلى كتفه بسير من الجلد أصابه الجرب فى عدة مواضع . ثم ألقى نظرة أخيرة على الرسالة ونادى بأعلى صوت فى حوش البيت فمالبث أن جاء يسعى شاب فى مثل عمره فى بيجاما من قماش رخيص ولهفة لاتفوت الأعمى . وكان يبدو عليه أنه فى انتظارها وأنه يعيش على كلماتها .

وفى مساء هذا اليوم لم يدر لم وثبت إليه صورة الشاب بشكل أوضح . عندما فرغ من العشاء وانزوى فى ركن من المسكن الصغير . كان أبوه يثرثر بمتاعب النهار وأمه تصرخ فى أولادها المتقاربى السن . فى يد الأكبر كتاب وفى يد الأصغر شقة من البطيخ ، أما هو .. ساعى البريد .. الابن الذى يلى والده فى تحمل المسئوليات ، فقد كان فى

الركن أشبه بالماء الراكد . لم يكن شيء ما قادرا على تحريك نفسه . فى حالة لاهى ملل ولا هى يأس . ولاهى شبع من الحياة . أقرب ما تكون إلى عدم المبالاة المؤقتة التى ننظر بها إلى أحداث تهمنا كثيرا ، وكان وقتئذ يتصفح جريدة الصباح مع أن الوقت ليل فشعر أن التوتر الذى يسود الدنيا شيء لاقيود له . فى تفاهة صداع يزول بقرص من الأسبرين ..

ثم فطن إلى تفاهة أفكاره هو وضحك من أنفه فى الوقت الذى وقع فيه بصره على صورة لشاب ضاحك منشورة في أحد الإعلانات التى زخرت بها الصحيفة . عندئذ تذكر أنه رآه وأنه يعرفه . وأبعد ناظريه عن الصحيفة وحملق من خلال النافذة فتاهت نظرته فى الظلام.. ولم يهتد إلى صاحب هذا الوجه .. لكنه لم يلبث أن شهق عندما فطن أنه يشبه وجه الشاب الذى رآه صباح اليوم وسلمه الخطاب الأنيق ..

لماذا يشعر نحوه بالحسد ؟! .

ولم يجئه الرد . كان إخوته يتشاجرون على اللب بعد تحميصه وأغنية تائهة تأتى من الظلام . ولم يدر لماذا شم رائحة عطر . ليس فى الحارة نساء يتعطرن كثيرا ولا حديقة على مقربة من المسكن . وخيل إليه أنه عطر نعيمة . وعاد فابتسم قائلا فى نفسه : « عطرها .. وخطها ؟ وهذا غريب » لكنه تناسى كل هذا عندما نظر فى صحيفة اليوم ورأى الوجه الضاحك مرة أخرى . وتذكر الشاب الذى سلمه الرسالة . لماذا يشعر نحوه بالحسد ؟! خيل إليه أنه يأخذ من السعادة

فوق ما يكفيه فهو بالتالى يجور على الآخرين . وتذكر عينيه . إنهما سر شخصيته . لم يدر صباح هذا اليوم أى حالتيهما أخطر عندما حملق فيه وهويتسلم الرسالة أوعندما أغضى وهو يتفحص الخط : « ليتنى أملك مثل عينيه . كانت نعيمة فيما مضى تحدثنى عن سر عينى الضيقتين بطريقة من لايقصد المدح فى الوقت الذى ترفعنى فيه إلى السماء .. آه ! »

وتنهد .. رمى بالصفحة تحت قدميه وأطفأ نور الحجرة ووقف فى النافذة ينظر فى الليل ..

كانت هناك أنوار تتوارى . لكن ارتفاع المسكن والأرض البكرالتى لم تبن بعد جعلت الليل أشبه ببحيرة تلمع فيها أنوار مراكب لاتتحرك . وأخذت نعيمة تبدو أكثر فأكثر. مثل صورة وحشية لاتظهر إلا فى الظلام . رآها فى أخر صورة لها .. قبل أن يفترقا وقد نما جسمها بشكل يلفت النظر .. امتلأ طولا وخصوبة .. وحتى الشعر بدا لطوله كأنه مستعار. لكن مهارة الطبيعة بدت عليها فى شىء آخر .. فى حداثة السن التى لم تفارق وجهها الصغير .. المستنير الأسمر اللامع كتلك الوجوه التى كانوا يدهنونها قديما بزيت الزيتون . والابتسامة التى تحمل براءة الطفلة وخمر المرأة . والضحكة القصيرة الحرة التى تبدو أنها لاتبالى ..

وتخايلت هذه الصورة أمام عينيه . سلمت عليه بعدم مبالاة وهى تودعه . لم تكن ذراعها ممدودة وهى تسلم .. بل كانت على هيئة زاوية

منفرجة وضغط على أطراف أصابعها فى حنق وشوق فأفلتت ضحكة ومعها آهة . ونزل فى الظلام . لم يحاول أن يشعل لنفسه عود ثقاب حتى لا يتعثر كأنما استمرأ الظلمة .. كأنما ليختفى فيها من نفسه . فقد أحس ليلتها أنه مسبوق . وقد صارت نعيمة فى ميزان المجتمع أحسن منه .

وعاد يسأل نفسه « ماذا عسى أن تكون علاقتها بالأصدقاء بعد أن أصبحت طالبة فى الجامعة ؟! . »

وحضر أمامه ـ مجسما ـ شبحان لرجلين . أحدهما جار يقف فى دكانه على رجل واحدة لأن رجله الأخرى مريضة بالروماتيزم وذلك هو أبوه والآخر شاب مهندم يقطع حدائق الأورمان مع فتاة سمراء .. كان من الممكن أن يكون هو .. هو شخصيا لولا الرجل المريض بالروماتيزم.

***

وكاد يشعر بالحنق على أبيه . ثم عاد فعدل وكاد يشعر بالحنق على نعيمة ولكنه توقف ..

كان الفرق بينهما فى سنوات الدراسة سنتان . هى فى الأولى الثانوية وهو فى الثقافة العامة . وفى العمر سبع سنوات . ومع ذلك كان أستاذها ؟!

فبعد أن قامت الصداقة بين أمها وأمه ندب ليعاونها فى الدروس . استمرت الحال بضعة شهور حتى اقترب امتحانه ، فانقطع ليستكمل استعداده الشخصى ، وفاز فى الامتحان .. نال الثقافة

والتحق بمصلحة البريد وانتقلت هى إلى السنة الثانية الثانوية .. ولم يستطع أن ينساها .

***

« ولكن .. لماذا لايكون هذا هوخطها ؟! »

إنه قادر على أن يعرفه فطالما كتبت أمامه .. وكتبت له !! . كانت تقول له « أستاذى العزيز » فى كل ورقة تكتبها ، وكان يتألم وهو يضحك فقد خيل إليه أن الحديث غيرموجه إليه حينما تقول : « ياأستاذى كأنما تناديه باسم غيراسمه . وبعد أن انقطع عن دراسته كان ينظر إليها كلما لقيها فيحس أنها تنمو . كل شيء فيها يكاد يسبقه حتى قبل أن تصل إلى المرحلة التى وصل هو إليها .

كان خائفا عليها ود لو استطاع امتلاكها حتى بالطريقة التى كانت تخطف بها النساء فى الغابات .. لأن موجة الحب التى ظنها ملكت كيانها بدأت تنحسر فعادت العلاقات إلى قوقعتها الأولى بين الأمهات . وقبل ذلك كان كل لقاء يورثه عذابا نفسيا .. عندما كانت تقول له « يا أستاذى العزيز » من خلال ابتسامتها المشرقة .

كان يحس أنها تخدعه بطريقة الأطفال الذين يخطفون الكرسى من وراء الذى يهم بالجلوس عليه . ولذلك فقد كان كل مرة يشعرأنه « سقط » وأنها تضحك من سقطته .

***

وكان آخر ما رآها فى ليلة زواج أخيها .

كان البيت يموج بالأنوار ، والزحام أكثر مما تصور. وكانت هى قد دخلت الجامعة ولكنها لم تكن بعد غيرت ثياب المدرسة الثانوية ولاطباعها ، ورآها ليلتها فى زينة متبهرجة .

كاد لايعرفها . خيل إليه أنها بلغت من العمر خمسة وعشرين عاما ووجهها الأسمر بدا أكثر امتلاء . وبسمة غير مستحبة تقطع المسافة إليه كلما عبرت أمام الباب .

كان قلبه يتلظى . خيل إليه أن التاريخ سيعود وأن ما مضى لم يمت بعد . وفى إحدى روحاتها ألقت إليه بإشارة من رأسها فهم منها أن يخرج إليها . واعتراه خوف عجيب حتى كادت خفقات قلبه تعلو على نغمات « الأكرديون » . وتلفت حوله فى بطء ثم قام وأطل من نافذة جانبية فالتقت عينه بعقود الأضواء على صدر البيت . وتنحنح فتشجع وخرج . لم يكن يدرى إلى أين ، لكنه بعد أن ترك الحجرة لم يلقها حيث كانت . ونزل إلى الشارع ، وهام على وجهه نصف ساعة ثم عاد . وعندما كان يصعد السلم كانت نغمات تتناهى إليه كأنها تدعو إلى الرقص . ووقف على بسطة السلم بالقرب من الباب وإذا بنعيمة نازلة من سلم السطوح على شفتها السفلى ملامح من شربت كأسا !

ولم تحملق فيه . أولته ظهرها بسرعة ودخلت إلى حيث تجتمع النساء وتركته حائرا حيث كان يقف .. عندئذ أدرك أن النداء لم يكن له . تذكر أن شخصا ما قام من الحفل وخرج قبل أن يذهب هو إلى النافذة الجانبية ويستجمع شجاعته .. أمور كأنها أحلام !

« ماكان أجملها فى تلك الليلة حين حاولت أن تمنح نفسها سنا أكبر ! »

***

على أنه ظل فى مكانه مشدوها ، وتنهاهى إليه من أعماق الحارة صبيان يهتفون « العبيط أهو هه ! العبيط أهو هه ! »

لعلهم كانوا يطاردون أفاقا ! لكنه على كل حال « فحص نفسه » حتى تخيل إليه أنه المقصود بالنداء . ووضع يديه فى جيبى بنطلونه وتشجع وصعد إلى السطح المظلم وفاحت من فضائه روائح مختلفة معظمها روائح طيوركانت نائمة فى ظلام الصيف تقرقر فى دعة . ولم يلبث أن رأى شبحا لشاب منتصبا فى الركن واقفا وظهره إلى الصاعد. وبعد قليل تحول ونظر إليه وظل كل منهما منتصبا أمام الآخر بلا تحيه ولاسؤال حتى رآه يتحسس جيوبه فتركه ونزل . وعندما وصل إلى بسطة السلم التى تقع عليها الشقتان اللتان فيهما الفرح وقف قليلا فإذا بنعيمة تحمل بين يديها طبقا مغطى بفوطة بيضاء وتنهب السلم صاعدة إلى فوق .. عندئذ نزل هو إلى الخارج .

***

« لكن لماذا يكون هذا هو ذاك ؟! هل هذا ضرورى ؟! »

وسأل نفسه هذا السؤال ، ولكن لم يجئه الرد إلا بعد شهرين .

لم يكن هناك رسائل خلالهما تصل إلى المنزل رقم (١٠) حتى جاء يوم فظهر بين الرسائل نفس النوع .. النوع الأنيق والخط الدقيق الذى كأنه كتب بدبوس . وحملق فيه وعرضه لأشعة الشمس .. ود لو

طاوعه ضميره وفتحه . فقط يقرأ مافيه ثم يعيد لصقه ويقدمه لصاحبه .. لكنه استكبرها على نفسه . ولم يلبث أن دلف لحوش البيت ونادى بصوت ود ألايسمعه أحد . لكن امرأة سليطة الملامح قوية النظرات برزت إليه وأخذت منه الرسالة علي أنها أمه . وقبل أن يدير إليها ظهره وينصرف نادته هامسة وطلبت منه ما لم يخطر على باله .. أن يفتح رسالة ابنها ويقرأها عليها .. كان كل شيء فيه يرتجف .. فتش أول شيء عن صاحبة الإمضاء فلم يجد إلاحرفا واحدا ..كان هو حرف « ن » . ضعف أمله في أن تكون هي نعيمة . ولم يدر في هذه الوهلة مدى التعاسة والراحة اللتين ظللتا على قلبه . كان يريد أن يرتاح منها ولكن .. لاتزال للقضية بقية . وبلع ريقه وبدأ يقرأ الخطاب .

... وكان لي صديق يحترم نزواتي لكنني كنت أطلب من لاأحترم نزواته ... لذلك لم أشعر معه بالسعادة ...

وليلة الفرح أدرت له ظهري وصعدت إلى فوق .. وكنت واقفا في الظلام ، ولم تكن وداعتك المعهودة فأخذت تسب ملابسي الضيقة السوداء التي حمتني منك في الليل ..

.. وإذا كنت أنا أتلذذ بتحمل نزواتك فقد شبعت مثلما شبعت أنت تلذذا من فرض نزواتك على ومن الضروري أن نفترق وأن نتبادل الرسائل : أعطني ماعندك وخذ ما عندي فلم يعد لأحدنا عند الآخر شيء .. »

***

وحملق في الأم وحملقت هي فيه فاغرة فما كبير الأسنان وسلمها خطاب ابنها وانصرف .. وظل طول الأسبوع التالي يفكر في الآنسة « ن » .إنها تكاد تكون هي حتى كانت إحدى الليالي . سمع لغطا شديدا وهو في حجرة داخلية . كانت أمه تتهم وتقبل وتعتب وتسلم وترحب ثم تعتب . وخرج .. فإذا بأم نعيمة قادمة بعد غيبة وبينما هو يسلم وقد عاودته الذكرى وإذا بالآنسة تهل من الباب . وغاب لونه وجف ريقه . لكنه تناسى كل واقع .

ولم يطل بهم الجلوس حتى دخلت عليه نعيمة . كانت ذات خصوبة حزينة ورونق منطفيء قليلا . وفي ابتسامتها شيء مختلف من حوادث كئيبة . وسألته عن الأحوال ثم سألها هو :

ـ ماذا ستفعلين بعد التخرج ؟

ـ سأتزوج مباشرة .

وجف ريقه مرة أخرى :

ـ من السعيد ؟!

ـ أستاذي !

فسرح بصره في الفضاء .

ـ بدرجة دكتورا طبعا .. على الأقل .. هه ؟!

فمطت شفتها وتركت أهدابها تسقط في استسلام . وتنهدت . وظلل صمت عاد فيه هو بخاطره إلى كل ماعرف . وبعد قليل تنحنح وسأل :



ولم يطل بهم الجلوس حتى دخلت عليه نعيمة

ـ أستاذك العزيز؟! هه .. أنا ؟!

فأومأت بالإيجاب :

ـ هل أصلح ؟! سيكون الفرق كبيرا إذا تغاضينا عن ..

فقاطعته :

ـ سأجعل مرتبى يحل مكان مرتبك فى الأسرة حتى تتم تعليمك .. كله !

فحملق وفغر فمه وسأل نفسه :

ـ « ثمن أى شىء هذا ؟! هل هذا ثمن الحب ؟! .. حب من فى الاثنين ؟! » .

وأحس أنه فى مكان المساومة . فيه شىء يباع ويشترى . وأحس بالدوار الذى شعر به ليلة ودعها ونزل السلم فى الظلام .لم يشعل لنفسه حتى عود ثقاب كأنما ليهرب من نفسه ..

وأمسك جبينه بين أصبعين بين الوسطى والإبهام كأنما يعانى صداعا .وهمس لها :

ـ نعيمة .. كان بودى أن أفعل ذلك . ظللت أنتظرك طويلا لكن قلبى تركنى ومشى فوجدت أنى أنتظر بلا قلب .. إن القلوب لاتعرف الانتظار ياآنسة.. «ن » !

فحملقت كأنما تذكرت شيئا . ونزلت سلما لم تصعده بعد ذلك .

العروسة

على الطريق الزراعى العام ـ حيث تطل كل الدور على حركة المرور . تقع دار صغيرة واجهتها مطلية بالجير .. حديثا . ويتصاعد منها دخان ورائحة خبيز وطبخ ورنين وزغاريد . وجلبة عند الباب . وعلى مقربة من الدار تجمع صبيان من مختلف الأعمار ينظرون تارة إلى الشمس الغاربة وتارة أخرى إلى امتداد الطريق . وكلما رأوا شبح سيارة عمهم الهرج والمرج وتصايحوا وهم يصفقون كأنهم يرددون لحنا « العروسة أهه ..العروسة أهه » .

وفعلت كلمة « العروسة » فعلها فى كل سن حين تناهت إلى أسماع عشرات الناس .. خلف النوافذ والأبواب وعلى الطريق وفى دكان الحاج عبده القريب من المكان .. فتنهدت فتاة فى السابعة عشرة من العمر كانت راجعة من الحقل . وتغنى على بعد منها بموال شاب فى العشرين . وعضت عجوز شفتها بلثتها . وتحسست صدرها بنية فى الثانية عشرة لكن ..

لكن مصطفى الذى سحرته كلمة « العروسة » أخذ يتلفت حوله فى كل اتجاه وقلبه يخفق . كان يشعر بحنين جارف لم يدع النوم ليلة أمس يزوره مبكرا . شأن كل غلام يجرى ويلعب ثم يرتمى نائما كأنه ميت .

وكان أبوه بائتا في البندر ليشتري حاجات منها المهم ومنها ماهو ترف . إذ هم في شهر أكتوبر والقطن جيد المحصول وحتي هذه العروسة التى تنتظرها الدار التي طليت واجهتها بالجير كان محصول القطن فيها سخيا .

وانطلقت الزغاريد ..

وكان « العريس » جالسا في مكان آخرعند أحد أقربائه المحبين تفوح من ملابسه رائحة عطر تشبه العنبر يشير بكفه الغليظة وهو يرد التحية بفخر من منح وساما ..

ومصطفى على الطريق بمعزل عن الصبيان . جلس على إحدى المصاطب وعيناه تحملقان في نشوة . وكلما سمع المجموعة وهي تردد في نغم رتيب « العروسة أهه » خفق قلبه الصغير وتململ في مكانه بقلق ربما زاد عن قلق العريس الحقيقي .

وطافت بخيال الصبي أشياء براقة ورائحة عطرة وألوان على الخدود . ثم .. معنى غامض شعر به مصطفى غريزيا .. معنى أن يملك المرء شيئا جميلا يقول له الناس وقتها « مبروك » !!

ومع غروب الشمس ووسوسة أوراق الشجر بنسيم الخريف تصايح الصبيان واثقين مما رأته أعينهم : « العروسة أهه » وانطلقت زغاريد في حماسة الهتاف الصادق وأزت في الهواء طلقات نارية هربت منها الطيور في الغبشة وملأت الأنوف رائحة التراب والبارود والعطر والدخان والطبيخ ونزلت العروسة فدخلت من باب الدار .

وأخذ كل شىء يفتر لكن مصطفى مالبث أن أخذ يجرى على الطريق نحو سيارة عامة توقفت لينزل منها ناس وكان أبوه أحد النازلين . ولما رآه الغلام أخذ يهتف من جديد بحماسة موكب كامل : « العروسة أهه .. العروسة أهه » .

وضحك أبوه وضحك الناس ، وقدم إليه أبوه هديته الغالية التى وعده بها قبل السفر ..عروسة من الحلوى .. حملها من المدينة . برق كل شىء فيها حين عبرمصطفى الطريق من أمام الدكان فغمره النور المنتشر من بابه . وكان سائرا على حذر . خائفا من أن يعثر . وخيل إليه أن الطريق كله منعرجات ومنخفضات .. حتى دخل بها .. دخل بها الداربسلام . وتقدمت خطى الليل

***

وكان مصطفى قد غفا قليلا ثم استيقظ على صوت يملأ أذنيه « العروسة أهه » ففتح عينيه واسترد وعيه .

ألفى نفسه راقدا فى إحدى الحجرات العليا من الدار ولم يكن على الطريق كما صورت له الأحلام . ووقع نظره على خشب السقف ثم المصباح المعلق فى الحائط . ثم الشباك المقفل .. المواجه للمصباح ..

كانت العروسة فيه .. فتبسم لها وهو راقد . وأخذ يمسح فى تلذذ بقايا النوم من عينيه . وتذكر موكب الصبيان وهتافهم والعريس الحقيقى وعروسه التى أطلقت لها البنادق والزغاريد .وتنهد الغلام فى لذة ثم نظر حوله ليرى النائمين . أمه وأخته التى تكبره ، ثم قام من مكانه

ومشى نحو الشباك .

وهناك وقف فرأى كل شىء يبرق . جسمها الأبيض الناعم الملمس وفمها وأنفها الصغيرين . وحمرة أحسن من التفاح على خديها . وقلنسوة من الفضة !! وحزام من الذهب .

خيل إليه أن هذا ليس ورقا ولكنه معادن نفيسة وكأن زغاريد المساء تتناهى إلى سمعه احتفالا بهما .

وتلفت فرأى أمه وأخته فى عز النوم . فتحسس فم العروسة ثم حملها بين يديه . وتألقت على رأسها وخصرها أنوار المصباح حين اقترب بها منه وخيل إلى الصبى أن العروسة تناغيه فقرب فمها من أذنه . وفى هذه اللحظة غنى كروان يعبر سماء الريف فملأ سمع مصطفى فابتسم مخادعا نفسه . وسمع إلى نداء من داخله يغريه بالتأكد من أنها « حلوى » فلعقها بلسانه . وعندئذ امتلأت حواسه بالسكر والشذى . وعاد نفس الكروان يعبر السماء ويغنى فخيل إلى مصطفى أنها زغاريد السماء فتلمظ فى سعادة .

ومشى بها خائفا عليها ووضعها فوق قاعدة الشباك . وكان كل شىء نائما إلا .. مصطفى والعروس !! وشعر عندئذ بالجوع ففكر فى الطعام .

ورأى على مقربة منه « سبتا » صغيرا فيه بقايا العشاء لكنه أحس بحاجة إلى شىء حلو . ولم يكن أمامه إلا العروسة . لكنه زجر نفسه ..

« أى قضمة ستكسرها.. حرام !! » ومصمص بشفتيه وربت عليها . وخيل إليه أنه اقتنع . لكنه مالبث أن قربها من أنفه وأخذ يشمها . وعاد الشذى والسكر فملأ حواسه . أغمض عينيه وفتح فمه وقضم قطعة منها من عند القاعدة التى تشبه قاعدة الناقوس ، وذوبها فى فمه وهومغمض العينين وبعد أن ذهبت اللذة فتح عينيه ليرى ماذا صنع فرأى فى القاعدة كسرا على هيئة مثلث فأحس بالندم . ولما وضعها فى مكانها من النافذة وقفت تماما ، فغمره سرور. لأن القطعة المأكولة لم تشوه العروسة . وتركها وذهب إلى حيث كان يرقد .

وأغمض عينيه فلم يزره النوم . وتذكر العريس فى الدار الأخرى على الطريق الزراعى وذكر سعادته بين المدعوين . فقد كان يرد عليهم التحية بفخر من منح وساما .

وتخيل مصطفى موقفه من عروسته ثم فتح عينيه فوقعت بسرعة على العروسة فى الشباك .

كان نور الصباح متألقا على الفضة والذهب . فى خصرها وفوق رأسها ، وخيل إليه أنها تبتسم له وتناديه فذهب إليها . وأحس بشوق إلى رائحة السكر فعاد يشمها .

وعندئذ أغمض عينيه .. وبلا تفكير ولارسم خطة قضم قضمة أكبر من القاعدة . وذوبها فى فمه وهوفى نشوة ، ثم فتح عينيه فرأى الكسر مستطيلا ليس له شكل مضبوط ، فوضع العروسة بلهفة على الشباك..

فلم تقف .. مالت إلى اليمين .. ولو تركها لسقطت وتحطمت ..



وخيل إليه أنها تبتسم له وتناديه

وعندئذ أحس بالندم .. « كنت أتركـها للصـبح ليـراها الأولاد .. ياخسارة » وظل حاملا لها بين ذراعيه متحيرا كيف يسندها . وهم أن يوقظ أمه من النوم ليستشيرها فى الأمر . لكنه خجل فمشى بها.. وجلس حيث كان يرقد ووضعها فى حجره وحمل رأسه بين يديه فى حزن وتفكير.

لكنه عاد فقال فى نفسه : « عملوها للأكل » وضحك .. غير أن الحزن عاوده ففكر فيما عسى أن يفعل . ولم يلبث أن رقد على جنبه ثم وضعها فى حضنه .. ظل يربت عليها ويحملق فى وهج النور على الفضة والذهب حتى نام .

***

وفى الصباح الباكر استيقظ .. لم يكن فى الحجرة أحد سواه . وفطن إلى شىء هام .. رأى « العروسة » فى حضنه حطاما من الحلوى . غلبه النوم فنام وتقلب عليها فكسرها . منظر مثل بقايا جرة من الفخار.. والرأس الجميل سليما .. على فمه ابتسامة غامضة خالية من الإغراء لأن الليل قد ولى .. ولم يغادر مصطفى مكانه .. أخذ يتناول قطعة بعد قطعة ويأكل فى وجوم . ولم يبق إلا رأسها ... فنظر إليها مصطفى وقال فى نفسه ولكن بألم : « كانت جميلة .. قبل كسرها .. »

وأكلها .. ! وتنهد عميقا وهو يبلع ريقه .

***

ولما ارتفعت الشمس وخرج مصطفى إلى الطريق مر على دار العريس فرآه جالسا عند الباب وكل من مر عليه يهنئه .

فتذكر الصبى تفاصيل ماوقع ليلة أمس .. فنظر نحو الدار التى طليت واجهتها بالجير حديثا وضحك ضحكة عالية تنبعث من أعماقه .

حلم ليلة

عندما لاح له وهو في نهاية الشارع الهادىء بضاحية المعادى منظر عم « ضيف » وقد أمسك فى كل يد بنتا ـ مشى بينهما فى هدوء وبين كل لحظة وأخرى ينحنى عوده الطويل ليقول لهما مايضحكان منه ـ عندما وقعت عينه على هذا المنظر أحس بقدر من الأسى الغامض يتسلل إلى قلبه .

إن عم « ضيف » رجل أثير عنده وعند بناته كذلك ، من الممكن جدا أن يعودا من المدرسة إلى البيت دون ارشاده أو انتظاره فالبيت غير بعيد والضاحية وادعة . لكن « منى » و« نوال » بنتيه تصران على أن ينتظرهما عم ضيف عند باب المدرسة .، لتثب كل منهما إلى عنقه مرة بقفزة عالية لأنه طويل بعد أن تناوله حقيبة الكتب ..

« منى » فى التاسعة و « نوال » فى السابعة وهما إذا سارا جنب عم ضيف بدت ضآلتهما ازاء عوده الفارع .

وهكذا رآهما أبوهما فى نهاية الشارع وهو عائد إلى البيت . ثم حث خطاه حتى صار على مقربة منهما وأتيح له أن يسمع النجوى الساذجة بين بناته الصغيرات ورجل ريفى طيب . افترس الرمد بصره فى صباه فلم يترك للشيخوخة بقية ، ولذلك فهو لايخرج بالليل إلا إذا كان برفقة أحد .

كانت « منى » تحكى و « نوال » تقهقه .. وهو يضحك . ليذكى فى نفوسهما المسرات .

وظل أبوهما يراقب الموقف حتى غاب الثلاثة فى الباب .. خلال شجيرات للزينة تحمل أزهار فصل الربيع . ثم دخل وكأنه لم ير شيئا لكن لفحة من الأسى خالطت قلبه فى هذا اليوم . لفحة .. كأنما هبت عليه من تنور قريب . مع أن هذا الأب واثق من أنه صنع كل ما يمكن عمله .. نحو عم ضيف الذى يقيم معه فى البيت كحارس وهولا يكاد يحرس نفسه ، بيت بطابق واحد ومن أربع حجرات حولها حديقة بدائية . من الممكن أن يحرسها كلب .

وعم ضيف ثقيل السمع ثقيل الفهم ضعيف البصر ، وهو لفرط طوله يجر خطاه إذا مشى حتى تسمع صوت احتكاك نعله بالأرض .

أما الأب والد هاتين البنتين فهو فى سن الأربعين ، يشغل وظيفة فى وزارة الشئون . نقل إليها أخيرا بعد أن طاف بالريف بضع سنوات كأخصائى اجتماعى فى عدة قرى وعدة مراكز . وفى كل مكان نزل فيه وأقام .. شيعته فيه دموع الحب ، فهو بطبيعته يحب السلام ، وكان أميز ما فيه سرعة إطفائه للخصومات بين العائلات فى القرى حتى أطلقوا عليه « حلال المشاكل » .

وها هو ذا قد استقر به المقام فى هذا المسكن الوادع .

ومنذ خمس سنوات سافر إلى قريته فقابله عم ضيف هذا وهو من أهاليها .. سلم عليه وانحنى بعوده الطويل يكاد يقبل يده . فارتاع

الأب .. إنه لايحب هذا النوع من الاحترام .. وهو كأخصائى اجتماعى يحارب الذل باسم التقدير . فهتف بعم ضيف صارخا :

ـ لا لا ياعم ضيف .. احك مشكلتك ولاداعى لما ستعمل ..

واتخذ جانبا من الطريق تحت شجرة « سنط » فرشت الأرض تحتها ببساط أصفر لما أسقطته من أزهار . كانت رائحتها مع رائحة الأرض المروية تملأ أنف الأب . على حين رفع عم ضيف رأسه فبرقت دموع فى عينيه المرمودتين .. الخاليتين تماما من الأهداب . وبلع الرجل ريقه وقال :

ـ ماتت .. ماتت .. و.. أصبحت وحيدا ..

وحيييدا .. يا ا ا أستاذ .

وشرق بدموعه ومسحها بكمه . ورفع الأب جاهدا ذراعه حتى أدرك كتفه وربت عليه قائلا له دون تفكير سابق :

ـ ستسافر معى إلى مصر ..

وفى الليلة الأولى التى باتها عم ضيف فى مسكن الأب فى المعادى لم تذق عيناه النوم .. عينا عم ضيف وعينا الأب ..

كان الرجل العجوز فى حجرة قرب الباب بها سرير من الخشب وتظلل سقفها سوابق شجرة عنب .

كان يتذكر ماضيه ..

هناك فى قرية صاحب هذا المسكن الحنون القلب . حيث ظل خاملا طول حياته . فمرة سائقا للأنفار فى أرض الوسية . ومرة مناديا

على المسافرين فى ساحة الأوتوبيسات .. ومرة تاجر دجاج ، وكان آخر عهده بالتجارة بأنواعها كلها حين تبين له ذات يوم أن كل قروية مرض دجاجها بالكوليرا باعته له .. سحنته تحمل الطيبة والتقوى والغفلة والرضا بالقليل .

لكن زوجته « سكينة » كانت على النقيض . تحول الصفر إلى عدد بطريقة لاتعقد فيها .. تتاجر فى الفاكهة والبيض والطيور دون رأس مال . وسيط ماهر باهر الجمال فهى كقروية كانت تعد نموذجا حيا للجسم العامل . الجسم غير المترف . وعندما كانت الشمس تلمس بشرتها كان وجهها يتوهج بحمرة ساحرة .. حية .. مثل حمرة أزهار الرمان .

نعم ..

كانت هذه الأفكار تتوارد على رأس عم ضيف على الوسادة حزنا على الماضى وخوفا من المستقبل . انبعثت تنهيدة عميقة من صدر الأب فقد ذكر صبيا .. ذكرغلاما .. كان فى قريته ووقعت له حادثة لعل لها علاقة بحياة عم ضيف . وكان الأسى فى هذه اللحظة تفوح رائحته فى غرفة الأب مع أريج بعض الأزهار التى سقيت عصرا وأخذت تتنفس فى الليل عطرا وأسرارا .

ونام الأب على أفكاره . آخر شىء تدبره . هو تلك الحادثة . ومع آخر ماتدبره كانت ضحكة من « منى » أو « نوال » تسرى فى سكون البيت . لكنه رأى فى منامه شيئا غريبا . قام بعده فرأى

الشمس تتسلل على ذوائب الشجر . ثم جرع كوبا من الماء .

ونظر الأب فى الساعة ..

كان يوم جمعة وهو نائم فى حجرة وحده .. كان الوقت لايزال مبكرا فعاد واستلقى فى الفراش وأغمض جفنيه .. هل لذ له أن يستعيد الرؤيا .. وأن يعود المنام .. لقد كان شيئا غريبا بالنسبة إليه .. فقد رأى فى أحلامه فترة هامة من حياة عم ضيف . كانت بالنسبة له ولزوجته التى لم تنجب كارثة أليمة .

فذات يوم كان هذا الرجل الهادىء الطبع يمشى وراء أنفار تجمع القطن عند أحد « الوسيات » وقبيل ساعة الظهر والشهر سبتمبر والجو مليء بالرطوبة ضاعت أنفاس الأولاد .. وعلى الخصوص ولد فى حدود السابعة من العمر يزاول عمله ربما للمرة الأولى . كان يتأخر فيساعده عم ضيف حتى يلحق بزملائه لكن لايلبث فترة أن تمر حتى يعود فيصير فى آخر الصفوف ..

وثارعم ضيف ورمى الولد بحصاة فى حجم الليمونة أصابت أذنه فمات فى الحال ..

***

عادت هذه الحادثة إلى الأب فى المنام ثم استمرت تفاصيلها .

فعم ضيف يحكم عليه بسنة حبسا لهذا القتل الخطأ . وسكينة زوجته تصبح وحيدة فى دار عند نهاية المبانى . بها ساحة خراب تسع مقبرة القرية على حد تعبير بعض الفلاحين . والباقى .. حجرات شتوية

تبعث الخوف فى نفس الوحيد .

ولم تستطع « سكينة » منذ الليلة الأولى أن تنام وحدها .. وكانت ذات صلة بأسرة متوسطة الحال . صلة عميقة حتى كأنها أم لبنيهم جميعا ، ولم يكن بين أفراد هذه الأسرة صغير إلا غلام واحد .. كان آخر العنقود . ساكن وادع كأنه أرنب . لاحس ولاضجيج ولا احتجاج . بل .. قد طالما احتجت أمه عليه لأنها لم تسمعه مرة يحتج على شيء . فى الثالثة عشرة من العمر.. كان جالسا مع سكينة وأمه . والأولى تبكى حظها ووحدتها . وخوفها من الليل . وفجأة وبلا مقدمات سمع الغلام أمه الشرسة تهتف به :

ــ قم .

قالت سكينة :

ــ إلى أين ؟!

ــ لينام معك . إنه ولد صغير ، إن رائحة الصبيان فى الدور قريبة من رائحة الرجال . لن تشعرى بالخوف !!

واستطرد الحلم :

ــ وخرج الغلام مع سكينة .. كانت ليلة باردة . لعلها فى نوفمبر والسماء بلا قمر. وصوت قطار بضاعة يكركب فى السكون على خط السكة الحديد البعيد .

كان كفه فى كفيها . شعر أنه منساق إلى عالم غيبى . وليس هو دار« سكينة » التى دخلها بالليل والنهار ألف مرة ليسأل عن ملابسهم

المغسولة عندها أو يطلب إليها عملا بإذن أمه . ولم تكن هى تتكلم . كان الحزن يأخذ عليها مسالك الفكر والكلام . حتى وصلا إلى الدار. وعندما دخلا إلى الساحة الكبيرة أحس أن جسم المرأة يرتعش . أحس حقيقة بأنها أرض معدة لبناء مقابر تنقصها شواهد الموتى .

وقطقطت أوزات فى أحد الأركان لم تأبه لها صاحبتها ، واتجهت فورا إلى القاعة وفتحتها ودخل وراءها الصبى .. فامتلأ أنفه برائحة دفء الفرن وسمن مقدوح وفطير فى سلة ..

واستطرد الحلم :

ـ فسكينة تبسط حشية قديمة على الأرض . وتديرمفتاح مصباح الجاز ليخفت نوره . وتخلع الملابس السوداء لتنام بجلباب آخر ممزق فى عدة نواح ، والصبى راقد جنب الحائط ووجهه إليه وهى إلى الناحية الأخرى .. ظلت تبكى وتتنهد حتى نام الغلام فلم يعد يسمع شيئا .

واستطرد الحلم :

فإذا بسكينة بعد استقرار الحال على هذا المنوال عدة شهور تأخذ الغلام فى حضنها ويستيقظ على قبلاتها التى تكتم أنفاسه . ويستسلم بلا كلام . وإذا به بمرور الليالى وملازمته الصمت يشعر فى مرقده جنبها بالشيء الغريب الذى كان خياله يسأل عنه عندما كان يرى باب حجرة فى أى دار يقفل على رجل وامرأة .

ومنذ هذه اللحظة كان ينظر إليها فى النهار وهى فى دارهم نظرة من « يملك » ولايستطيع أن يبوح ، ويشعر عند غيابها بحزن كانت



كان ينظر إليها فى النهار وهي
فى دارهم نظرة من « يملك »

ترجمته ذبولا وشرودا وزيادة فى الانطواء .

ولما خرج زوجها من السجن عاد الغلام إلى دار أبيه . لكن منظر عم ضيف كان يثيرفى نفسه أحاسيس شريرة . حتى ربض له ذات ليلة فى الظلام ورماه بحجر فصرخ الرجل وهرول يجرى . ولم يعرف الجانى.

واستيقظ الأب من النوم على صرخة الرجل . وتلفت حوله وتنفس الصعداء .إنه مجرد حلم ..إنه فى المعادى وعم ضيف تحت فى الحجرة السفلية ، وشرب جرعة الماء ، ونظر فى الساعة ، كان اليوم جمعة فأطل من نافذته ونادى على عم ضيف . وصعد الرجل إليه .

كانت عيناه الضعيفتان تقولان : نعم ! أى خدمة .

ولم يجد الأب مايقوله فسأله عن أحواله ، ونظر إلى جبين عم ضيف فإذا بأثر الحجر واضح كأنه بقعة .

ولم يكن الجانى عليه في الظلام والذى رماه بالحجر سوى الأب عندما كان غلاما !!

وعندما قابله عم ضيف فى القرية وشكا له موت زوجته شعر بالذنب مرتين ، من أجل هذا أخذه ليكفل له أيامه الباقية .

***

وفى اليوم التالى كانت منى ونوال تهبطان السلم الواطىء جريا نحوحجرة عم ضيف بإذن من الأب والفرح يطير بهما . وإحداهما تحمل له ملابس الشتاء ، والأخرى تحمل له علبة الدواء .

لحظات وداع

كان على الشاطىء دموع كثيرة ساعة أقلعت الباخرة من أحد موانى إيطاليا صباح يوم من أيام أكتوبر ، فى طريقها إلى الإسكندرية . وكان أكثر المودعين بكاء شاب قصير القامة عليه سمرة مصرية ، وتدل ملابسه وإهماله لشعره على أنه من الفنانين . كان يودع الباخرة بمنديل بلله بدموعه ويبادلته الوداع من على سطح المركب سيدة سمراء فى مقتبل العمر لم تكن فى مثل جزعه من الموقف .

وما إن غابت معالم الأرض عن عيون الركاب حتى كان البحر شديد الهياج ، فخيم على الجالسين فى الصالونات والراقدين فى الكباين والمضطجعين على الكراسى فوق السطح ـ صمت شامل فقد كان دوار البحر متسلطا على معظمهم وخصوصا الذين ركبوا البحر للمرة الأولى .

لكنه عند هبوط المساء أخذت الأحوال تتحسن . فهدأ الجو وخفت حدة الموج ، وابتسمت الوجوه الشاحبة المسبلة العيون عند سماع أول بشير من بشائر السرور متمثلا فى غناء جماعى لبعض الشبان والفتيات عند ركن من أركان السطح بدأوا به متهالكا كسلان ثم دب فيه الحبور والنشاط والحب .

وكما يفعل الناس أيام الحرب فى ليالى الهدنة فعل ركاب هذه

السفينة . فبدءوا ينهبون المسرات قبل عودة الكدر . فتجمعوا حلقات حلقات في كل مكان .. في المماشي والردهات والبار العلوى والصالونات يغنون ويمرحون قبل أن يعود البحر إلى الهياج مرة أخرى .

ولم تكن هذه السيدة السمراء قد امتزجت بعد بالجو الذى حولها . كان فى رأسها صداع من الدوار الذى أصابها ظهرا بعد قيام السفينة ببضع ساعات . وفى نفسها حنين مكبوت غامض لاتدرى إلى أى وطن ينتمى .

فأخذت تقطع الممشى بهدوء وبطء وشرود كما يفعل المرضى فى دور النقاهة . ثم بدا لها أن تتكىء على الحاجز الحديدى فجعلت تتأمل تلاشى نور المصابيح فوق سطح الماء . والجزء المظلم والجزء المضىء من البحر الجبار .. وعند الأفق كان الظلام يتكاثف ولاشىء وراء الظلام .

وعند منحنى الممشى سمعت خلفها وقع أقدام ثقيلة عرفت صاحبها من أول وهلة ، لكنها لم تحاول تغيير وقفتها وإن أحست أن عينيه تعبثان بها من الخلف ، فصدرت منها حركة غير إرادية كأنما وخزها دبوس وتململت إحدى قدميها على الأرض .

ولم يلبث هو أن اتكأ على الحاجز بمسافة تبعد عنها ثلاثة أمتار وعلى الرغم من ذلك حاولت أن تنظر بعيدا عنه إلى الاتجاه الآخر.

كان الظلام كثيفا عند الأفق وكانت تحملق فيه كأنها ترى هناك نقطة صغيرة من النور . وعند هذه النقطة تخيلت زوجها وهو يودعها باكى العينين .. والهزيمة ماثلة على قسمات وجهه بوضوح . ولم يكن

تكوين جسمه ولاملامحه من المظاهر التى تجعل دموعه تثير شفقة من يراه .. بل على العكس كانت أحزانه تثير الضحك : فقد كان ضئيل الجسم كبيرالرأس منفوش الشعر بارز الجبين ضيق العينين . تهتز عضلات وجهه إذا وقع في مأزق ، أما هى فقد كانت الملامح ، وزمام موقفها فى يدها باستمرار وتبدو قادرة على تحمل لحظات الوداع . وأخذ الشاب الضخم الجسم المتكىء على الحاجز يتنحنح بين لحظة ولحظة . وساد الصمت فترة استمع فيها إلى الموج ثم بدأ يرسل صفيرا خافتا كأنه يغنى للبحر. ولم يكن من المستطاع أن يصل الصوت إلى سمعها لولا أن الهواء كان يهب من ناحيته ، وفى اللحن نغمة كأنها نجوى أخرجتها من أفكارها مرة أخرى لتعود إليه .. هذا الذى لم يلق عليها تحية المساء كأنه لم يلقها . ويعاملها بتحفظ وهو الذى مد إليها يده وقت الظهر بقطعة من الليمون وقرص من الدواء زعم لها أنه ضد دوار البحر. وأحس ساعتئذ أن عينيه تمسكان الناس كأنهما نوافذ سحرية . وهوفوق الثلاثين من عمره وعلى وجهه المائل إلى الشحوب طابع الملذات والتجربة .

ثم انقطع اللحن فلم يعد يصل إلى سمعها . وعلى الرغم من رغبتها فى الحركة فقد ظلت مشدودة إلى مكانها تحملق فى الظلمة كأن عينيها مشدودتان إلى نقطة وهمية من النور رأت عندها بخيالها تفاصيل ماحدث فى الأسبوع الأخيرقبل الرحيل بينها وبين زوجها الفنان الذى يدرس الرسم فى إيطاليا .

لقد ظن أن إقامتها معه ستعاونه على المعيشة لكنه تبين بعد مدة أنه أخطأ فى الحساب . فقررت الزوجة أن تعود إلى مصر قبل أن يدهمها الشتاء فلا تستطيع صحتها أن تثبت للمقاومة . وابتسم الزوجان وعيونهما مليئة بالدموع ثم ارتمى كل منهما على صدر الآخر فى حسرة من تبين له أن فى الدنيا أشياء لايستطيع الحب وحده أن يقهرها .

وتنحنح الواقف على مقربة منها وعاد يصفر فى الوقت الذى كانت فيه هى تسترجع صور أشخاص عرفتهم هناك . فذكرت على الخصوص « جوليانو » الشاب الإيطالى صديق زوجها . ذلك المستطيل الوجه الأسود العينين والشعر الأخضر الذقن والشارب .. وتذكرت غناءه الشديد الوله الممدود المعذب النغمات فى الأيام التى كانوا يخرجون فيها إلى الضواحى لقضاء عطلة الأسبوع .

وفى الوقت الذى أخذ الشاب القريب منها يمشى بخطى وئيدة مثل خطى الديدبان كانت هى تتذكر حكايات جوليانو ونوادره ومرحه الذى كان يسكب البهجة فى نفس أشد الناس حزنا .

لكن أفكارها توقفت عندما عادت الخطى الثقيلة فسكتت خلفها وإذا بالشاب يعود فيلقى عليها تحية المساء ويتكىء على الحاجز قريبا منها . وردت التحية . ولم تكد تنصرف بأفكارها حتى استرجعها إليه عندما قال يسألها :

ــ لعلك الآن أحسن صحة من قبل ؟

فردت بعدم مبالاة :

ـ أشكرك .

وأخذت تتفرس فى وجهه الواقع فى اتجاه النور فرأت عينيه الساحرتين وسمعته يقول بنبرة خالية من كل تكلف لكنها مليئة بقوة لم تدرك سرها :

ـ هل كنت تدرسين الفلسفة فى الخارج يا آنسة ؟

فحملقت فيه وهى تكتم ضحكتها وسارعت تسأل :

ـ فلسفة ؟! ولماذا هذه التهمة ؟!

ـ تهمة ؟! أنا أتكلم جادا .. لكن ..

ـ لكن ماذا ؟

ـ لكن يخيل إلى أن ردك على جاد أيضا .

وهكذا انفتح باب الكلام كما أراد . إنه هو الذى أمسك بذراعها عصر اليوم ساعة كادت تسقط على السلم والباخرة تميل إلى الأمام والخلف وعند وصولها إلى السطح حملقت فى وجهه وشكرته ثم انصرفت . وها هو ذا يعود من جديد ، وها هو ذا قد رماها بتهمة الفلسفة ثم عاد يؤكد لها قوله :

ـ أنا كنت أتكلم جادا لأنك كنت مستغرقة فى التفكير بطريقة تؤكد هذا الظن .

ثم ابتسم فأجابته فى هدوء :

ـ هل تريد أن تعرف ماذا كنت أفكر فيه ؟



لكن أفكارها توقفت عندما
عادت الخطى الثقيلة فسكتت خلفها

ـ نعم .

فردت وعلى وجهها معنى سترته الظلال لأن النور كان آتيا من ورائها :

ـ كنت أفكر فى .. فى .. فى غيرة زوجى التى لا تطاق .. إنه غيور ياسيدى .. ولو رآنا الآن لـ

وكانت تتوقع أن تهزه المفاجأة أكثر مما رأت لكنها سمعته يضحك فى طمأنينة وأجابها وهو يضغط إحدى كفيه بالأخرى :

ـ أو .. كل هذه المتاعب مرة واحدة ؟! .. متزوجة .. وزوجك غيور .. ولم تكونى تدرسين الفلسفة ؟! يعنى أن ظنى لم يصدق حتى فى شىء واحد .

ثم سكت ليستطرد :

ـ أنت راكبة من إيطاليا لأننى لم أرك على السفينة قبل ذلك .هيه .. زوجك غيور ! .. أنا لو كنت مكانه ..

ثم سكت وعاد يسأل :

ـ هل سيكون بانتظارك على الميناء ؟

ـ طبعا .

ـ هل كنت وحدك فى إيطاليا ؟

ـ لا كنت عند أخى موظف فى السلك السياسى وقد دعانى أنا وزوجى لقضاء شهرين عنده .. لكن جدت أمورحتمت رجوع زوجى قبلى .

ـ آه .. حسن .. لكن لماذا أنت خائفة من الناس ، ألم تسافرى وحدك قبل هذه المرة؟

فتأوهت وهى تقول :

ـ ربما .

فقال بتفاؤل شديد :

ـ إن الجو قد بدأ يبرد . ألا تلاحظين ذلك . ألا تحبين أن ندخل إلى المقصف لنشرب شيئا ما ؟

وأشار بيده نحو الباب فسارت وتبعها .

وهناك أخذ يتحدث عن الغيرة مرة أخرى لأنه رآها أنسب الأشياء لإثارة المشاعر :

ـ هل يسر المرأة أن يكون زوجها غيورا.. أريد أن أسألك أنت .. هل يسرك أن يكون زوجك غيورا ؟ ؟

فأجابت وهى ترشف القهوة ببساطة من اقتنع بموقفه وانتهى :

ـ إنها دليل على الحب لايقبل النفى طول العمر.

فضحك حتى كاد قفاه يلمس مسند الكرسى .

وكانت ضحكته لاتخلو من سخرية وقال :

ـ إنى أعرف أزواجا يغارون على زوجات لايحبونهن وأعرف زوجات يغرن على أزواج يكرهنهم .. المسألة ياسيدتى مسألة « حب امتلاك » .. أنا شخصيا لا أستطيع أن أتصور نفسى غيورا على زوجتى .

ـ لماذا ؟!

ـ لأنها إذا كانت دليلا على الحب فهى أيضا دليل على فقد الثقة. الثقة فى النفس وفى الغير كذلك .

وابتسم ابتسامة كبيرة وحملق فى عينيها ، وكانت جالسة فى الركن تحت مصباح يضفى على الموقع سحرا . وبدا عليها فجأة أنها توافق على كل ما يقول ، وأن آراءه قد أعجبتها . وعلى شفتيها ولدت ابتسامة لم تتكامل ولم تذهب . فاقترب منها حتى تلامست أقدامهما وسألها :

ـ لماذا لاتتكلمين ؟

ـ هل تريد رأيى فى ذلك بصراحة ؟ كنت أتمنى ألايكون غيورا . إننى أمنح حبى للرجل الذى يمنحنى ثقته كاملة . ولذلك ..

وسكتت وحملت رأسها بين كفيها . ثم قالت : آه .. إننى أشعر بصداع . لقد عاد البحر إلى الهياج طاب مساؤك ..وأرجو أن تبقى مكانك ..

وبات يحلم طول الليل بماعسى أن تتطور إليه العلاقة .. إن أول جلسة بينهما قد منحت ثمرات طيبة لكنه خشى حتى الآن أن يسألها عن اسمها ، ومن الغريب أنها فعلت نفس الشيء . قال فى نفسه :

ـ ربما كان هذا دليلا على انسجام أعمق فأعجب كل منا بالآخر وشغلتنا الحقائق عن القشور .

ولم ينم إلا لماما .. وكان خيالها يناوشه طول الليل ، وكفاها

البيضاوان الصغيرتان تضغطان طرفى الشال على صدرها تحت المصباح الخافت النور . واستيقظ مبكرا . وصعد إلى السطح ليرى شروق الشمس . وكان البحر لا يبشر بيوم جميل بل كان يدعو إلى المخاوف .

ولما ارتفع النهار بدأ المركب يتراقص فلم تتح له فرصة أن يراها. وقضى بقية النهار متعبا فلم يستطع مغادرة الفراش . لكن الأحوال فى الليل أخذت تتحسن فصعد يفتش عنها فى كل ركن لكنه .. لم يجدها .

وبات ليلة أخرى يحلم بها . لكنه فى الصباح التالى وجدها جالسة على السطح على أحد الكراسى ، ولم تكن وحدها هذه المرة .

كان معها رجل ويتجاذبان أطراف الحديث وكانت السعادة تبدو على محياها بشكل واضح .. السعادة التى لايمكن وصفها .

ورآها أيضا تبدو أكثر اطمئنانا منها ليلة كانت جالسة معه . كان شىء من الخوف والأحلام يظلل وجهها ليلتئذ ، أما الآن ومع هذا الرجل فقد كانت فى مرح العذارى فى فصل الربيع . ولما مر على مقربة منها وحيا وردت ردا عاديا لايحمل اهتماما ولاذكرى حتى خيل إليه أنه أخطأ النظر ، لكنه وقف على بعد منهما يرقب ملامحهما وهما منهمكان فى الحديث .

ورآها تضحك كثيرا وتميل نحوه أحيانا حتى لا يفوتها حرف مما يقول . ومن الغريب أنه لم يكن شابا وإن كانت هى فى ريعان شبابها . كان رجلا فى حدود الثالثة والخمسين متصابيا خفيف الظل . ولم تمض

فترة حتى رآهما يسيران جنبا إلى جنب وكأنهما يتفرجان على أركان السطح لأول مرة .

ولم يكف عن الحديث ولم تكف عن الضحك . ولو كان هناك حلبة رقص لجذبته هى من ذراعه طالبة أن يراقصها .. هكذا خيل للشاب ! فشعر كأن شيئا عزيزا قد ضاع منه ، وأنه قد هزم فى الجولة على غير انتظار.

وأحيانا يلذ لنا أن نمتحن قوة غرمائنا .

ولذلك .. كان كل من الرجلين يقترب من الآخر فى مساء اليوم نفسه .

ولم تكن هى على سطح المركب . وحيا كل منهما الآخر بلا تردد ، ثم وقفا يتجاذبان أطراف الحديث الذى أفضى بهما أخيرا إلى أن يقص الرجل على الشاب أشياء منها اسم هذه السيدة .

ودهش الشاب . لماذا لم يسألها عن اسمها كما فعل هذا الرجل . وتذكرقصة التفاحة التى سقطت على أرض الحديقة وقصد إليها رجلان كل من ناحية لكى يأخذها فلما وقع بصر كل منهما على صاحبة أخذته الكبرياء فوقفا يتحدثان وكأن الأمر لا يعنيهما حتى تقدم ثالث فالتقطها وانصرف .

وعندئذ انصرف الرجلان .. كل يسخر من نفسه ومن صاحبه .

وقال الشاب فى نفسه : عندما ألقاها سأفعل أكثر مما فعل . ثم سأل غريمه قائلا :

ـ إنها سيدة لطيفة ويبدو أنها كانت معجبة بك فهل عرفت عنها شيئا ؟

فأجاب الآخر باعتزاز :

ـ أشياء ياصديقى أشياء ؟ .. إنها كانت فى ايطاليا عند أخيها الموظف فى السلك السياسى ورجع زوجها لأمر ما وتركها . وهى تتردد على أحد النوادى الكبيرة فى العاصمة وسألقاها هناك . وقد أبدت مخاوفها من أن تنتهى علاقتنا بمجرد وصولنا إلى اليابسة .

ثم فرك كفيه فى اعتزاز شديد فى الوقت الذى أحس فيه الشاب بلسعة الغيرة . وقرر فى نفسه ألايدع غريمه يكسب الجولة الأخيرة مهما كلفه هذا من عناء .

وكانت الجولة الأخيرة قريبة جدا لأنه لم تبق إلا ليلة واحدة سيقضيها المسافرون فى البحر ..ليلة واحدة ويتفرق الأصدقاء ويحمل كل ذكرياته الخاصة به . ولم يكن البحر ثائرا كما لم يكن هادئا . ولم يكن سطح السفينة شديد الزحام لأن الجو كان مائلا إلى البرودة .

وأخذ الشاب يفتش عن السيدة متشوقا ظامئا ومتوقعا فى لحظة أن يجدها لكن معه وهى تستمع إلى حديثه . حتى إذا ما وقع عليها بصره فى أحد الصالونات مشت الرعدة فى جسمه كأنه لم يكلم سيدة قط . وكان على وجهه وله المحبين فى حركات يديه علامات قلق . أما هى فقد كانت وحدها تنظر فى سهوم إلى كل شىء حتى إذا فطنت إليه وهويجلس إلى جوارها انتفضت انتفاضة خفيفة . ونظرت إليه كأنها

تقرأ أسارير وجهه ، ثم قالت بعدم مبالاة :

ـ هل سيعود البحر إلى الهياج مرة أخرى ؟

قال مطمئنا وكأنه يعنى غير مايقول :

ـ لا .. لاتخافى . إنه سيكون الليلة وديعا كنهر النيل تماما (ثم تنحنح مستدركا) على أنه لم يبق إلا سواد الليل وينتهى الأمر .. ماذا إذن لو ذهبنا إلى المقصف ؟!

فزادت ابتسامتها اتساعا ونظرت إليه بعينين واهنتين . وتهالكت فى جلستها كأنها تؤكد له أنها لن تقوم . فاستعان الشاب بكل مايملك من تجربة وجعل وجهه يعبر عن الحزن العميق وعاد يسألها :

ـ إذا كنت تخافين من هياج البحر فتأكدى أن ذلك لن يحدث فلماذا لاتريدين أن تذهبى إلى المقصف ؟

قالت بدلال :

ـ الليل بارد .

ـ لا تقولى هذا .. فأنت تدفئين ليلة شتاء على ظهر سفينة . هلمى !

فقامت ، وهي تضغط الشال على كتفيها .

وفى الركن السابق تحت المصباح الذى أضفى على الموقع سحرا عادا يتجاذبان أطراف الحديث . وشعر الشاب فى لحظة ما أنه فى موقف القائد الذى تحتم عليه المعركة أن يرمى بكل قواته ليحرز النصر على عدوه .. عدوه الذى جاوز الثالثة والخمسين .

فتحدث عن الأشخاص الذين يلقاهم الناس فى حياتهم على سبيل المصادفة ثم يفترقون ولايلتقون .. مرة واحدة . وقد لايرى كل منهما الآخر ، لكنه يحمل فى نفسه ذكرى لاتزول حلاوتها قط . ثم سألها :

ــ ألم يحدث لك أن أحسست بهذا الإحساس مرة واحدة . ألم تلتقى مرة بإنسان ندمت على أنك لم تريه قبل يوم لقائه ؟

وفى الوقت الذى كان يلقى عليها هذا السؤال بهمس يأسر الروح كان غريمه يطل عليه من أحد الأبواب وهو واقف فى المشى بحيث يراهما ولايستطيعان أن يرياه . ومضت لحظة صمت قبل أن تصدر منها بادرة تعتبر جوابا على سؤاله لكنها مالبثت أن أومأت برأسها وعلى فمها ابتسامة مرتبكة وقالت :

ــ نعم .. حدث .. ويحدث ! فأحس كأنها تقول له : ألسنا معا أنت وأنا فى نفس الموقف ؟ فقال لها بحماسة :

ــ ثم ألم تلاحظى شيئا آخر.. ألم تلاحظى أن أحدنا لم يسأل الآخر عن اسمه . لماذا ؟!

فأجابت وهى تهز رأسها :

ــ ليس ذلك مهما .. إنه .. لم يحل بيننا وبين أن نتحدث فى أشياء أكثر جمالا من أسمائنا ..

وهم بأن يقول لها : إنه عرف اسمها بطريقه ما ، أو عرف اسمها من الرجل الثانى لكنه فضل أن يسكت حتى لا يفسد التعابير الحية البادية على ملامحها . فقال :

ـ يخيل إلى أننى أناجيك فى ضوء القمر . ماذا لو امتد بنا السفر يوما آخر ؟ ألاتحسين أن القدر أحيانا يبخل بدقيقة ؟!

ولم ترد . وكانت فى كرسيها كامرأة تريد من يحملها إلى فراشها.. متهالكة فى جلستها وعيناها مثقلتان بالنوم . ولم ترفع إليه طرفها .. كانت تنظر إلى حجرها باستمرار والبحر يؤرجح بهما الكراسى فى هزة ألفتها الأجسام فأصبحت قريبة من الهدهدة ، لكنها سألته فى همس عذب حين سمعته يتأوه :

ـ مالك ؟!

فوضع كفه على جبينه وكأنه يعصره به ، فسألته :

ـ هل أحسست بدوار البحر ؟!

ـ لا . « ثم ابتسم يكمل » الماء المالح لا يصيبنى بالدوار .. الذى يتعبنى ويعذبنى ويصيبنى بالدوار هو الماء العذب ؟! الماء العذب.

فجمعت شالها حول كتفيها وقامت تنصرف . لكنه أحس كأنها تقول له : لاتتركنى . فسألها :

ـ هل من الممكن أن نلتقى مرة أخرى ؟

فحملقت فى وجهه تسأل عن الطريقة ولم تخل نظرتها من عجب. إنه لم يبق إلاسواد الليل وتلقى السفينة مراسيها .. وظلت واقفة كالتمثال كأنها تنتظر بقية حديث فألقى بكل ماعنده . قال :

ـ إننى وحدى فى كبين بالدرجة الأولى فهل تشربين عندى فنجالا من الشاى .. الليلة ؟!

فهمست كأنها تتذكر شيئا :

ـ الليلة ؟!

ونظرت إلى الأرض ثم نظرت إلى الساعة التى كانت تحدد العاشرة مساء ثم أرخت معصمها وهى تقول :

ـ لا أدرى .. ربما ..

ـ سيكون الباب مغلقا بلا مفتاح .. أديرى الأكرة أى وقت .. طاب مساؤك .

ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وكان الشاب جالسا يتململ ولم يشعل إلا نور أباجور صغير ، ثم بدا له أن يستلقى فى فراشه ليحلم ورأسه على الوسادة . وفى هذه اللحظة كانت الممرات خالية تماما . وصوت البحر يسمع فيها واضحا جليا والناس نائمون .

لكن شبحا كان يتسلل محاذرا ألا يراه أحد . وعد أربعة أبواب ووقف عند الخامس وقرأ الرقم كما هو متفق عليه ، وأدار الأكرة فانفتح الباب من فوره فدخل ثم أغلق الباب فى سكون ..

وتحرك الشاب فى فراشه ثم انتفض واقفا وسط الكابين . ولم تأخذه دهشة كبيرة لأنه كان يعرف الوجه الذى أمامه .. لقد كان وجه الرجل الآخر.. وجه غريمه فيها مزاحمة فى حبها .

وزالت دهشتهما بعد قليل فأدرك الرجلان أنها هى التى جمعتهما فى هذا اللقاء . حين ألقت برقم الغرفة للذى كان يتربص لها حين لقيها بعد أن تركها الأول .

وفى الصباح رأت كلا منهما .. لكن على بعد .

وفى ميناء الإسكندرية رأى الغريمان ناسا بانتظار السيدة فوقف كل منهما يخمن من عسى أن يكون زوجها بين هؤلاء الرجال .

أما الخطاب الذى كتبته إلى زوجها بعد وصولها بالسلامة فقد جاء فيه :

- « حبيبى :

هل تذكر القصة التى قصها علينا جوليانو ونحن فى الميناء قبل ركوبى ؟ قصة السيدة التى سافرت وحدها وتزاحم عليها رجلان سخيفان حتى ضاقت بهما ؟ .. لقد حدثت لى وأنا فى الطريق ونفذتها بالطريقة التى جاءت فى حكاية جوليانو .

كنت أظن أنه يمزح لكن فى الدنيا حقائق أشد غرابة من المزح .. لقد بت أضحك طول الليل حين نجحت وجعلتهما يلتقيان وجها لوجه فى كابين أحدهما . لكأن جوليانو كان يريد أن يقول بحكايته : « إن الشرف الحقيقى هوأن تحافظ على الشىء ونحن قادرون على تبديده تمام القدرة دون أن يرانا أحد » .

استمع ياحبيبى إلى حكاياته من هذا النوع واحذر عيون الإيطاليات ذات السحر والأسرار .. حتى أراك » .

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من أجل ولدى
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضى لا يعود
(٩) ألوان من السعادة
(١٠) أشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) أسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء

مؤلفات الأستاذ على أحمد باكثير

(١) اخناتون ونفرتيتى
(٢) سلامة القس
(٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج
(٥) الفرعون الموعود
(٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس
(٨) روميو وجولييت
(٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر
(١١) السلسله والغفران
(١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم
(١٤) أبو دلامة
(١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة
(١٧) ماساة أوديب
(١٨) سر شهر زاد
(١٩) سيرة شجاع
(٢٠) شعب الله المختار
(٢١) إمبراطورية فى المزاد
(٢٢) الدنيا فوضى
(٢٣) اوزوريس
(٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران
(٢٦) إله إسرائيل
(٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) التوراة الضائعة
(٢٩) جلفدان هانم
(٣٠) فى ذكرى محمد ﷺ
(٣١) من فوق سبع سموات
(٣٢) الشيماء
(٣٣) إبراهيم باشا

الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

(١) على أسوار دمشق
(٢) معركة الجسر
(٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك
(٥) تراب من أرض فارس
(٦) رستم
(٧) أبطال القادسية
(٨) مقاليد بيت المقدس
(٩) صلاة فى الإيوان
(١٠) مكيدة من هرقل
(١١) عمر وخالد
(١٢) سر المقوقس
(١٣) عام الرمادة
(١٤) حديث الهرمزان
(١٥) شطا وأرمانوسة
(١٦) الولاة والرعية
(١٧) فتح الفتوح
(١٨) القوى الأمين
(١٩) غروب الشمس

كتب الأستاذ إحسان عبد القدوس :

١ ــ صانع الحب	مجموعة قصص	عام ١٩٤٩
٢ ــ بائع الحب	مجموعة قصص	عام ١٩٤٩
٣ ــ النظارة السوداء	مجموعة قصص	عام ١٩٥٢
٤ ــ أنا حرة	قصة طويلة	عام ١٩٥٤
٥ ــ أين عمرى	مجموعة قصص	عام ١٩٥٤
٦ ــ الوسادة الخالية	مجموعة قصص	عام ١٩٥٥
٧ ــ الطريق المسدود	قصة طويلة	عام ١٩٥٥
٨ ــ لا أنام	قصة طويلة	عام ١٩٥٦
٩ ــ فى بيتنا رجل	قصة طويلة	عام ١٩٥٧
١٠ ــ شيء فى صدرى	قصة طويلة	عام ١٩٥٨
١١ ــ عقلى وقلبى	مجموعة قصص	عام ١٩٥٩
١٢ ــ منتهى الحب	مجموعة قصص	عام ١٩٥٩
١٣ ــ البنات والصيف	مجموعة قصص	عام ١٩٦٠
١٤ ــ لا تطفئ الشمس	قصة طويلة	عام ١٩٦٠
١٥ ــ زوجة أحمد	قصة طويلة	عام ١٩٦١
١٦ ــ شفتاه	مجموعة قصص	عام ١٩٦١
١٧ ــ ثقوب فى الثوب الأسود	قصة طويلة	عام ١٩٦٢
١٨ ــ بئر الحرمان	مجموعة قصص	عام ١٩٦٢
١٩ ــ لا ليس جسدك	مجموعة قصص	عام ١٩٦٣
٢٠ ــ لا شيء يهم	قصة طويلة	عام ١٩٦٣

٢١ ـــ بنت السلطان	مجموعة قصص	عام ١٩٦٤
٢٢ ـــ أنف وثلاث عيون	قصة طويلة	عام ١٩٦٦
٢٣ ـــ علبة من الصفيح الصدىء	قصة طويلة	عام ١٩٦٧
٢٤ ـــ سيدة فى خدمتك	مجموعة قصص	عام ١٩٦٧
٢٥ ـــ النساء لهن أسنان بيضاء	مجموعة قصص	عام ١٩٦٩
٢٦ ـــ لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص	مجموعة قصص	عام ١٩٧٣
٢٧ ـــ دمى ودموعى وابتسامتى	مجموعة قصص	عام ١٩٧٤
٢٨ ـــ الهزيمة كان اسمها فاطمة	مجموعة قصص	عام ١٩٧٥
٢٩ ـــ الرصاصة لا تزال فى جيبى	مجموعة قصص	عام ١٩٧٥
٣٠ ـــ العذراء والشعر الأبيض	مجموعة قصص	عام ١٩٧٧
٣١ ـــ خيوط فى مسرح العرائس	مجموعة قصص	عام ١٩٧٧
٣٢ ـــ حتى لا يطير الدخان	مجموعة قصص	عام ١٩٧٧
٣٣ ـــ ونسيت أنى امرأة	قصة طويلة	عام ١٩٧٧
٣٤ ـــ الراقصة والسياسى	مجموعة قصص	عام ١٩٧٨
٣٥ ـــ لا تتركونى هنا وحدى	قصة طويلة	عام ١٩٧٩
٣٦ ـــ على مقهى فى الشارع السياسى	كتاب سياسى ـــ الجزء الأول	عام ١٩٧٩
٣٧ ـــ خواطر سياسية	كتاب سياسى	عام ١٩٧٩
٣٨ ـــ على مقهى فى الشارع السياسى	كتاب سياسى ـــ الجزء الثانى	عام ١٩٨٠
٣٩ ـــ أيام شبابى	مجموعة مقالات	عام ١٩٨٠
٤٠ ـــ آسف لم أعد أستطيع	مجموعة قصص	عام ١٩٨٠
٤١ ـــ يا ابنتى لا تحيرينى معك	مجموعة قصص	عام ١٩٨١
٤٢ ـــ يا عزيزى كلنا لصوص	قصة طويلة	عام ١٩٨٢
٤٣ ـــ زوجات ضائعات	مجموعة قصص	عام ١٩٨٢

٤٤ ــ لن أعيش فى جلباب أبى	قصة طويلة	عام ١٩٨٣
٤٥ ــ وغابت الشمس و لم يظهر القمر	قصة طويلة	عام ١٩٨٣
٤٦ ــ ومضت أيام اللؤلؤ	قصة طويلة	عام ١٩٨٤
٤٧ ــ رائحة الورد وأنوف لا تشم	قصة طويلة	عام ١٩٨٤
٤٨ ــ اللون الآخر	قصة طويلة	عام ١٩٨٤
٤٩ ــ فى وادى الغلابة	قصة طويلة	عام ١٩٨٦

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٥١٥٧ / ٧٨
الترقيم الدولى × ـ ٣١٣ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه